363

HARLEQUIN

روايات أحلام

رجل غاضب

روبين دونالد

www.elromancia.com
مرمورية

رجل غاضب

ذكريات ذلك الصيف الرائع مع سوريل عذبت لوك عشر سنوات . وملأته غضباً .
وها قد عادت سوريل إلى نيوزيلندا . لتستلم المنزل الذي كان ذات يوم بيته . ليلة واحدة كانت كافية لتؤجج من جديد نار ذاك الهوى القديم . ولكن على لوك أن يستعيد السيطرة على نفسه قبل أن يضيع إلى الأبد . فلطالما كانت سوريل المرأة الوحيدة القادرة على التأثير فيه !

لبنان	2500ل.ل	البحرين	1دينار
سوريا	75ل.س.	السعودية	10ريال
الأردن	1.5دينار	مصر	8جنيه
الكويت	750فلس	المغرب	15درهم
الإمارات	10دراهم	تونس	2دينار
قطر	10ريال	عمان	1ريال

ISBN 9953-15-276-4

روايات أحلام

تصدر عن شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
المدير المسؤول: آمال سابا الهاشم

حقوق النشر والطباعة والتوزيع باللغة العربية
محفوظة لشركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
بترخيص خطي من *Harlequin Enterprises II B.V*

كل الحقوق محفوظة، بما فيها نسخ الكتاب بكامله أو جزء منه بأي شكل من الأشكال
تم نشر هذه الطبعة بالاتفاق مع شركة *Harlequin Enterprises II B.V.*

كل العلامات التجارية استعملت
بترخيص من شركة *Harlequin Enterprises II B.V.*

كل شخصيات هذه الرواية وهمية. أي شبه بين هذه الشخصيات وأشخاص
حقيقيين أحياء كانوا أم أمواتاً هو محض صدفة

العنوان الأصلي لهذه الرواية باللغة الإنكليزية:
One night a parenga
First published in Great Britain 2002
Harlequin Mills & Boon Limited
© Renee Rorzel 2002
Translation © Dar El-Farasha - 2005
ISBN 9953 - 15 - 276 - 4

شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. طريق المطار - سنتر زعرور -
ص.ب: 8254/ 11 هاتف/ فاكس: 450950-1-961- بيروت - لبنان
Email: info@darelfarasha.com - http:www.darelfarasha.com

أعزائي القراء

لأننا عوّدناكم دائماً على أجمل الروايات العاطفية... ولأننا نعرف أن قراءنا لا يرضون بأقل من الأفضل... ولأن هدفنا دوماً المحافظة على واحة حب تخفّف من وطأة الآلام والهموم في عالمنا... لهذا، اخترنا أن تكون هديتنا إلى قرائنا في بداية هذا القرن هي انضمامنا إلى أسرة هارلكوين Harlequin العالمية.

لماذا هذا الاختيار؟

لأن شركة Harlequin هي رائدة الروايات الرومنسية في العالم أجمع، وهي تتعاون مع أفضل الروائيات في هذا المجال، وتصدر شهرياً أكثر من ٧٠ عنواناً جديداً.

ستظل روايات أحلام على سابق عهدها من حيث اختيار القصة الشيّقة والأسلوب الرفيع واللغة السليمة... والتغيير الذي ستلاحظونه هو في زيادة عدد الروايات شهرياً، وتنوع الموضوعات لتناسب جميع الأذواق، وسيكون لمشاركتكم باختيار المواضيع المفضلة لديكم وبأسماء الروائيات اللاتي أحببتموهن، الدور الأساسي.

بكل إخلاص
أسرة أحلام

www.elromancia.com

روبين دونالد

تعيش «روبين» حتى الآن في «نورثلاند» في «نيوزلند».

أقامت أولاً في مزرعة والدها المنتجة للأجبان والألبان، ثم انتقلت إلى «باي أوف أيلندز» وهي منطقة ذات جمال طبيعي أخاذ، حيث تعيش هناك مع زوجها وكلبها. استقالت من مهنة التدريس حين اكتشفت أنها تفضّل عليها كتابة الروايات. والآن حين لا تكتب «روبين» فهي تقرأ أو نعتني بحديقتها أو تسافر أو تكتب الرسائل لولديها الراشدين وأصدقائها.

المقدّمة

قالت سوريل مايتلاند بصوت يكاد لا يُسمع، وقد بدا وجهها أشبه بقناع جميل: «إذن، لم يبقَ شيء!».

مسافة كبيرة تفصل بين نيوزيلندا ونيويورك، وقد عاشت في الولايات المتحدة حوالى ثماني سنوات، إلا أن صوتها الخافت لا يزال يحمل لكنة بلدها الأم.

رمقها المحامي بنظرة حادة، وقد شعر بالارتياح لأنّ العينين الخضراوين الكبيرتين لم تذرفا الدموع، ثم قال: «أخشى أنّ ما بقي قليل جداً».

رآها تقوّي عزيمتها، ثم قالت بصوت أجش:

- إن... المال أكثر من أن يتبدد. فماذا حصل؟

- يبدو أن والدك مقامر، وهذه طريقة سريعة وسهلة لخسارة المال.

الملايين التي كسبتها سوريل مايتلاند في السنوات الماضية انسابت من بين أصابع والدها بسهولة كما تنساب المياه من اليد.

راجعت الأرقام التي أعطاها إياها وطرحت بعض الأسئلة. إنها ذكية بقدر ما هي جميلة، هذا ما خطر له وهو يتأمل شعرها الأحمر الذي عقدته بطريقة مرتبة.

لو لجأت إليه في بداية حياتها المهنية لحذّرها من أنّ الأهل نادراً ما يكونون أفضل من يحمي أولادهم. لكن، هل كانت فتاة في سن الثامنة عشرة لتصدّق ذلك؟

قال: «كنت أود أن أزف إليك أخباراً أفضل من هذه».

شعر بأسف أكبر لأنه حطّم أوهامها. وبالرغم من أنّ المرأة التي تجلس قبالته لا تعدّ من بين أشهر عشر عارضات أزياء، إلا أنها مشهورة بما يكفي. وبما أنها في أواسط العشرينات فقد بقي أمامها سنوات قليلة لتعيد بناء ما تهدّم.

لكن فقدان الثقة أمر مختلف كلياً. قال: «إن لم يحصل المدمن على القمار على مساعدة، فهو يسخّر أي شيء، بما في ذلك الأمانة، والإيمان، والأشخاص الذين يحبهم، عند الضرورة. يحتاج المدمن على الكحول إلى دعم وإرادة وعزيمة ليتغلب على حاجته إلى الشرب، وهذا الأمر ينطبق على المقامر».

قالت بصوت خافت: «كنت أعلم أنه يتردد إلى الكازينو، ويراهن على الخيول، لكن...».

وصمتت للحظة ثم ختمت كلامها بعجز: «لم يكن لديّ فكرة».

انحنى إلى الأمام قائلاً: «غالباً ما تجهل الأسرة ذلك، حتى يحصل أمر كهذا. آنسة مايتلاند، يجب أن تضعي أموالك في أيدٍ أخرى».

فقالت بهدوء وبصوت لا يحمل أيّ أثر للانفعال: «سأفعل. أعلم أنك وموظفيك بذلتم المستحيل وأمضيتم ساعات طويلة في حلّ مشاكلي ومشاكل والدي. أشكركم على عملكم الجاد».

فردّ بارتباك: «على الرحب والسعة. إذا احتجت لأي نصيحة فلا تترددي في السؤال».

وقفت برشاقة فبدت طويلة وأنيقة للغاية ثم مدت يدها، فيما أضاءت ابتسامتها الشهيرة وجهها.

ـ أنت لطيف جداً، لكنني أعرف ما عليّ أن أفعله الآن.

وتساءل لاحقاً لما صافحها بهذا الحرص، وكأنها قد تتكسر، علماً أن قبضتها كانت ثابتة وقوية. وحدها القشعريرة التي اجتاحت أصابعها الطويلة كشفت الاضطراب الذي تخفيه الملامح الناعمة المزينة بإتقان.

خطر له بعد أن أقفل باب مكتبه خلفها أنها تتصرف بطريقة متميزة، تنمّ عن مستوى عالٍ.

في الشقة التي تتقاسمها مع والدها، خلعت سوريل قفّازيها وسارت إلى النافذة لتحدّق إلى حديقة سنترال بارك التي يغطيها بساط من الثلج.

أشاحت بوجهها وضغطت باطن كفّيها على عينيها الحمراوين، كابحة الدموع التي تهدد بالانهمار. في غضون شهر واحد، تحطّمت حياتها وأصبحت شظايا يصعب جمعها مجدداً.

أولاً، وفاة عرّابتها الحبيبة في نيوزيلندا، ثم تلت هذه الصدمة المفجعة الجلطة التي أصابت والدها فأقعدته وسجنته في حطام جسده. كان بارينجا، منزل سينتيا، خالياً لكن والدها لا يزال حياً.

إذا ما استطعنا أن نسمي وجوده حياة.

أنزلت سوريل يديها ورمشت بعينيها مراراً لتستعيد رؤيتها للعالم. نظرة سريعة إلى ساعتها أعلمتها أن نصف ساعة تفصلها عن موعد عودتها إلى مأوى العجزة المكلف للغاية حيث سيقيم نيجل مايتلاند في المستقبل المنظور.

لكن، من بين الأمور التي لم ينجزها شراء بوليصة تأمين لنفسه، لذا عليها أن تتصل بوكيلها أولاً.

قالت بسرعة: «لويز، بالنسبة لعرض فونيير... أنا موافقة».

صدرت عن لويز صرخة قصيرة، أسكتتها سريعاً: «عزيزتي، هذه أخبار سارة. كانت بدايات بيل سانفورد في إحدى حملاتهم، وقد سمعت للتو أنها مرشحة لنيل أوسكار. فونيير شركة رائعة للإعلانات».

فكرت سوريل في أنّ الإباحية هي التي تسيطر على حملات العطر التي تديرها أشهر شركة أدوات تجميل في العالم.

اكملت وكيلتها: «ما دمت تظنين أن فونيير تسوّق الإباحية بطريقة مبطنة، فما الذي جعلك تغيرين رأيك؟».

المال الذي ستكسبه من الحملة الإعلانية سيساعدها على إبقاء والدها في العيادة. لكنها لن تخبر لويز، فكلما قلّ عدد الذين يعرفون حقيقة وضعها كلما كان أفضل.

- خطر لي أنّ الأمر قد يكون ممتعاً... ومختلفاً.

بدا صوتها رفيعاً ومثقلاً بالانفعالات، فابتلعت ريقها وحاولت أن تظهر بعض الحماس وهي تضيف: «قد يؤدي هذا العمل إلى... فرص أخرى».

تغيّر صوت لويز: «حسناً. يسرني أنك اتخذت هذا القرار... فلعل هذه هي فرصتك الأخيرة مع فونيير. أنت لا تزالين رائعة بالطبع، لكنني سأكون وكيلة أعمال فاشلة إن لم أنبّهك إلى أن الكثيرات مستعدات للحلول مكانك».

فقالت سوريل بخفة: «عالم من الفتيات التواقات والجميلات اللواتي ما زلن في السادسة عشرة من العمر. لا بأس يا لويز، فأنا أعرف شروط مهنة عرض الأزياء».

طمأنتها لويز: «ما زال أمامك بضع سنوات. والآن، اهتمي بنفسك وسأتصل بك لاحقاً».

وضعت سوريل السماعة والتفتت تتأمل الشقة. عليها أن تتخلى عنها. لحسن الحظ أنّ ما من روابط عاطفية تربطها بهذا المكان... فهو من اختيار والدها.

في المطبخ، سكبت كوباً من الماء وشربته قبل أن تتوجه إلى الغرفة التي يسميها والدها مكتبه. إنه منظم ومرتّب مثله تماماً، وقد احتفظ بكافة تفاصيل ديونه بدقة غريبة.

حاولت أن تربط بين الوالد الذي عرفته وأحبته طوال حياتها وبين الرجل الذي جرّدها من كل قرش كسبته ليمارس هوايته في المقامرة، لكن دماغها عجز عن ذلك.

على أيّ حال، إنه والدها وهو يحبها. ولعل الأهم هو أنه محتاج إليها.

وبالرغم من أنه لا يستطيع أن يحرك سوى جفن واحد، إلا أن الممرضات قلن لها إن المؤشرات الحيوية لديه تحسنت عندما حضرت ومن ثم تدهورت بعد رحيلها. عليها أن تكسب ما يكفي من المال لتدفع كلفة علاجه حتى...

- حتى تتحسن حالته.

هذا ما قالته بثبات، مع أنها تدرك أن حالته لن تتحسن.

فوالدها النشيط والحيوي والقوي لم يعد ينتظره سوى البؤس. لذا، إذا ما كانت راحته والعناية به تتطلب أن تصور إعلانات في أوضاع مغرية لتسوّق لسلسلة من العطورات، فستفعل.

www.elromancia.com

١ ـ مرحباً بعودتك

اجتاز لوك هاردكاسل الفناء الأمامي لمنزل «واينامو»، وقد قطّب حاجبيه الأسودين في وجهه الوسيم القاسي فيما راحت مدبرة منزله تنظر إليه نظرة استغاثة. كان برفقتها سائق شاحنة تابعة لشركة نقل محلية، وقد بدا من وقفتها أنها تتجادل معه.

سأل لوك: «ما المشكلة؟».

فصمت السائق.

رمقت مدبرة المنزل الرجل بنظرة استخفاف، وشرحت كما لو أنها تحدّث طفلاً: «يقول إنه يحمل صندوقاً لسوريل مايتلاند في بارينجا، وأنا أحاول أن أفهمه أنها لا تعيش هناك. لقد استأجرت أسرة بانينغ المنزل مدة سنتين بعد وفاة السيدة كوبستيك، ثم انتقلت إلى توبو منذ أسابيع. وبارينجا فارغ حالياً».

قال السائق بفظاظة: «لقد قصدت بارينجا فلم أجد أحداً، لكن التعليمات على الصندوق واضحة وصريحة ـ سوريل مايتلاند، بارينجا، طريق هاردكاسل ـ ويجب أن أتركه على هذا العنوان».

قاوم لوك الشعور الصاخب الذي اكتسح جسده الضخم. يا إلهي، هل سيتخلص من هذا الشعور يوماً؟

لم تفارق سوريل خياله على مدى عشر سنوات، فملأته إحباطاً وغضباً. وقد كره نفسه لأنه تابع تقدّمها في العالم الفاسق الذي اختارته، وارتاح حين توقفت الصور المغرية والتلميحات في الصحف والمجلات منذ سنتين، بعد حديث عن زواج وإدمان على المخدرات وحمل.

فكرة أنها أصبحت متزوجة أراحته بعض الشيء.

إلاّ أنه لم يستطع كبت نبرة التسلط التي ظهرت في صوته حين سأل:

ـ ألا يمكنك أن تعيد الصندوق إلى مستودعكم حتى تسلّمه صاحبته؟

فرد السائق بنبرة حزينة: «لقد اتصلت برب عملي، لكنه قال إن ما من مكان لدينا للاحتفاظ به حتى تظهر سوريل مايتلاند. ولا يمكنني أن أتركه في بارينجا وحسب... فما من مكان لوضعه بسبب الطقس. على أيّ حال، لا بدّ أن يوقّع أحدهم على لائحة الاستلام».

قال لوك بحدة: «لديّ مفتاح لبارينجا... سأتبعك إلى هناك لنضع الصندوق في المنزل».

ورأى بطرف عينه مدبرة منزله فاغرة فمها، فأضاف: «شكراً لك بين».

احمرّت بعض الشيء، وأومأت برأسها قبل أن تلج من الباب وتقفله خلفها. صعد لوك إلى سيارته الرانج روفر وانطلق خلف الشاحنة.

هل تخطط سوريل للعيش في المنزل الذي أورثتها إياه عرّابتها؟

وارتسمت على فمه ابتسامة باردة. لن تفعل إذا ما تدخل في الأمر.

إن سوريل التي شاركها فصول صيف ساحرة وبريئة لسنوات، اختفت منذ زمن وتحوّلت إلى امرأة ابتسم وجهها بإثارة متحفظة في مئات المجلات، لتتألق أخيراً في حملة إعلانية لعطر، حملة أثارت الجدل والاستغراب في العالم.

كان لوك يحلم أحياناً بأنه الرجل الذي تنظر إليه بعينيها الناعستين، المغمضتين جزئياً في دعوة هادئة.

احتقر نفسه بسبب المشاعر التي حركت كل عضلة في جسمه. تحول بسيارته إلى الجسر المؤدي إلى بارينجا وأطلق شتيمة لأنه التف بسرعة. ارتطمت السيارة قليلاً بالحافة الخشبية، لكنه استعاد السيطرة عليها سريعاً.

في الليلة التي سبقت عيد ميلادها الثامن عشر، نظرت إليه وقد ارتسمت على وجهها هذه الابتسامة نفسها. حرّكته المشاعر التي تعاظمت في داخله يوماً

بعد يوم، فلم يستطع أن يقاوم رغبته في معانقتها.

ومنذ ذاك الحين، تبدّل الحال ولم تعد الأمور إلى ما كانت عليه.

حينذاك، أدرك أنّ عليه أن يتخلص من سوريل، وقد فعل هذا بتصميم لا يلين. ولم يندم على ما فعله للحظة، حتى وإن كانت لا تزال تتمتع بالقدرة على شغل أحلامه بشغف عنيد وتوّاق.

هل سيرافقها زوجها يا ترى أم لعلها تركته؟ هل تزوجت فعلاً؟ إن احتفاظها بشهرتها يشير إلى أنها لم تتزوج، إلاّ أن العديد من النساء المتزوجات يحتفظن بشهرتهن.

تباً، لِمَ يهتم للأمر؟

ركن سيارته في الفناء خلف الشاحنة. بالرغم من أنّ رجلاً يأتي مرتين في الشهر ليحافظ على المكان مرتباً إلا أن المنزل الكبير الذي يعود إلى العصر الادواردي حيث ولد، يحلم وحيداً أحلاماً كئيبة في حديقة تغشاها الوحدة.

مدّ السائق الأوراق نحوه قائلاً: «أعرف من أنت، كما يعرفك رب عملي، لكن القواعد هي القواعد».

وقّع لوك في أسفل الاستمارة: «ما هو حجم هذا الصندوق؟».

ردّ السائق: «ليس ثقيلاً، وهو على الأرجح يحتوي على ملابس. سوريل مايتلاند عارضة أزياء، أليس كذلك؟».

اضطر لوك إلى كبح الرد الفظّ الذي كاد يتلفظ به.

قال بنبرة حيادية: «كانت عارضة أزياء».

كشّر سائق الشاحنة وقال: «لا بد أنها جميلة».

لكن البريق البارد في نظرة لوك الرمادية أربكه فأعاد الأوراق سريعاً إلى الشاحنة وقال بحماسة: «حسناً، من الأفضل أن نحمله إلى الداخل».

في وقت متأخر من تلك الليلة، وقف لوك عند نافذة غرفة الجلوس ينظر بعينين لا تريان إلى مصب النهر الواقع أسفل المرج والحديقة الواسعة. وتراءت

له الابتسامة المثيرة والمحنكة التي رآها مرات لا تحصى ولا تعد. وليذكر نفسه بما هي عليه، بحث عن تلك المجلة لدى عودته إلى المنزل بعد أن أمضى فترة بعد الظهر في العمل بجدّ، علّه يتخلص من المشاعر المضطربة التي أثارتها فيه فكرة عودة سوريل.

على الغلاف، بدت مثيرة في ثوب ترتديه النساء لارتياد الحفلات الراقصة، ثوب من الحرير الكهرماني اللون. أما الإعلان في الداخل فأظهر سوريل مختلفة. وبصرخة اشمئزاز، رفع لوك فنجان القهوة الذي لم يكن قد لمسه بعد.

كان يظن أحياناً أنه لن يتمكن أبداً من أن يزيل تلك الصورة اللعينة من دماغه. إنها جميلة، تنمّ عن ذوق حسن، وعن براعة في التصوير والإضاءة، صورة تحاكي الكمال... لكنها إباحية إلى حد بعيد. فيما الرجل في الإعلان ينظر بتملك في عينين تعكسان وعداً مثيراً، عينين خضراوين يبرزهما كحل بلون الشب الأسود.

عينا قطة اسودتا بوعد الهوى...

وضع الفنجان الفارغ على الطاولة بقوة، لن يفيده التفكير فيها مراراً وتكراراً.

لقد شغلت علاقات سوريل الصحافة، فتحدثت عن خطوبة وزواج محتمل، لكن هذه الشائعات لم تفقدها براءتها كما يفترض بها أن تفعل. وانتشر خبر فسخ خطوبتها في الصحف والمجلات، إذراح الحبيب المهجور يشكو لوعته لكل من شاء أن يستمع إليه. وبعد أن نودي به كمغنٍ ومؤلف أغاني العصر، استخدم قضية قلبه المكسور لينتج ألبومه التالي، وهو أفضل ما أنتجه بحسب آراء النقاد.

إن لوك لا يأبه لأغاني الرجل أو للارتباط المفسوخ أو لحياة سوريل العاطفية، فلديه حسابات يراجعها وأعمال يراقبها. وبعد أن شمل المجلة بدعايتها المثيرة بنظرة، حملها وخرج من الغرفة.

كان على وشك أن يصل إلى مكتبه حين خرجت مدبرة المنزل من المطبخ وهي تبتسم بشيء من الحذر.

ـ لقد انتهيت.

قالت هذا وهي ترمق المجلة التي في يده بنظرة سريعة مرتبكة.

أومأ برأسه من دون أن يكسر صمته ثم أقفل باب مكتبه خلفه بضربة حازمة قبل أن يقذف المجلة في سلة المهملات.

ليس لديه فكرة عما جعله يحتفظ بها.

في سن الخامسة عشرة، حين حاولت زوجة أبيه الشابة والجشعة أن تغويه، أقسم ألاّ يصبح كأبيه فيترك وجهاً جميلاً وجسداً مغرياً يسلبانه. لن يسمح لأي امرأة بأن تتمتع بهذا القدر من السلطة والسيطرة عليه. وقد عززت وفاة أبيه المبكرة واكتشاف وصية وضعها في إحدى ليالي الإشفاق على الذات، تصميمه على الحفاظ على ذاك القسم. ويعتبر لوك نفسه رجلاً طبيعياً، ذا حاجات طبيعية، حاجات لا يجد صعوبة في تلبيتها. واعترف بأنه واثق من نفسه ومعتدّ بها في بعض الأحيان، لكنه يعرف مدى قوته وهو يستغلها بكل ما أوتي من مهارة وقدرة.

اعتادت سوريل أن تمضي العطلة الصيفية في بارينجا بعد أن باع المنزل لجدتها. بطولها الفارع وارتباك الفتاة الشابة، شكّلت حضوراً خجولاً على هامش حياته، حضوراً غير واضح إلاّ إذا استثنينا شعرها الكستنائي المذهل وتينك العينين الكبيرتين البريئتين. أثارت فيه غريزة الحماية المتوازنة وعاطفة ما، لكنه كان مشغولاً معظم الوقت في حلّ نتائج وفاة أبيه المبكرة ليلاحظ وجودها.

وعندما بلغ الخامسة والعشرين وفيما كانت أسابيع قليلة تفصلها عن عيد ميلادها الثامن عشر، وصلت لتمضية العطلة الصيفية.

انحنى لوك ليشغل جهاز الكومبيوتر وهو يعبس في الشاشة. تحولت سوريل

التلميذة بشكل ما إلى مخلوقة أشبه بالحوريات، بقدّ ميّاس وحلاوة خجولة، فتاة مغرية بشكل طبيعي غير متصنّع أثارته كما لم يثره أي شيء آخر من قبل.

والتفت يتأمل مكتبه بشفتين مزمومتين وسط وجه قُدّ من حجر. لقد اختلفت الأمور الآن، فهو لم يعد ذاك الشاب الواثق من نفسه إلى حدّ الغرور، كما لم تعد هي تشبه تلك الفتاة اللطيفة التي تحمرّ خجلاً كلما وقعت عيناها عليه.

ـ من يأبه إذا ما عادت سوريل مايتلاند؟

قال هذا بصوتٍ عالٍ، فبدا صوته أجش في سكون الغرفة.

جلس إلى مكتبه وفتح أحد الملفات فيما أصابعه الطويلة تضرب بفروغ صبر على لوحة مفاتيح الكومبيوتر. كان يتساءل أحياناً إذا ما كان رد فعله العنيف على سوريل ناتجاً عن تخبّطه في معركة معيبة مع امرأة تحمل شبهاً سطحياً بالفتاة الشابة.

ثار غضب زوجة أبيه عندما صدّها، فبذلت قصارى جهده لتحرمه من واينامو، إرثه الوحيد من والده وتطلب الأمر محامين من ذوي الأجور العالية وقضية في المحكمة لإجبارها على تقبّل الهزيمة، كما كلّف لوك مبالغ طائلة، مبالغ كان في حاجة إليها ليعيد واينامو إلى سابق عهده.

لكن، وعلى الرغم من ذلك، تجاهل في الأسابيع الأربعة من ذاك الصيف البعيد كل غريزة وكل تحذير أطلقه عقله. وفي النهاية، لم تتمكن إرادته الحديدية أو عقله الحاد والبارد من انقاذه من فقدان السيطرة على نفسه. لقد نظر إلى وجه سوريل أكثر مما يجب، كما أنه عانقها.

ما زال يزعجه أن يعترف بأنه لم يتمكن من كبح نفسه من دون أن تحاول، ومن دون أيّ دعوة مثيرة أو أيّ محاولة إغراء. كانت الفتاة تتمتع بقدرة على تحطيم رباطة جأشه وانضباطه اللذين أصبحا طبيعته الثانية.

وعندما حصل ذلك، لم يعد هناك مجال للتراجع. عناق واحد، ولم يعد يثق

بنفسه. رفع رأسه ونظر إلى تينك العينين الغريبتين، الواسعتين بفعل التوقع والتنبّه، فأدرك بحسّ عملي بارد أنه إذا لم يضع حداً لذلك، فسيسير حتماً نحو الفشل مع امرأة غير مناسبة كلياً. عندئذ، استبعدها لوك بفظاظة عن حياته، كارهاً نفسه على ضعفه.

وقد كان محقاً، فالبراءة المحتشمة لم تكن سوى كذبة. فمسارها المهني أظهر أن سوريل تطلق العنان لأهوائها على غرار زوجة أبيه.

يوماً ما، سيتزوج لكنه سيحسن الاختيار. والمرأة التي يخطط للزواج منها ستكون مختلفة تماماً عن أمه وزوجة أبيه، وهما امرأتان طماعتان، استخدمتا سلطتهما الجنسية للكسب المادي والعاطفي.

متى ستعود سوريل؟ ولماذا؟

* * *

قاومت سوريل الغريزة التي دفعتها إلى الدوس على المكابح عند المنعطف الذي ظهر فجأة أمامها. استعادت مواهب لم تستخدمها منذ زمن طويل، ورفعت قدمها تدريجياً عن دواسة البنزين لتوجّه السيارة التي لم تعتد قيادتها عبر المنعطف.

كانت المساحتان تبذلان قصارى جهدهما، لكن من دون جدوى مع هذا المطر الغزير المنهمر. وقد زاد في صعوبة القيادة الظلام الذي بدأ يحل.

أرجعت شعرها الأحمر المائل إلى البني عن وجهها، وأرخت يديها على عجلة القيادة. تعلّمت أن تقود على هذه الطريق وقد أحسن لوك تعليمها.

رحّبت بطريقة جبانة بالسفر عبر شبه جزيرة نيوزيلندا وسط عاصفة صيفية عنيفة. فالتركيز خلّصها من توتر أعمق، توتر أتلف أعصابها مع اقترابها من واينامو، محطة الماشية الشاسعة، منزل سلالة هاردكاسل الفخورة منذ أكثر من قرن ونصف.

أين لوك الآن؟

وارتسمت ابتسامة ساخرة على فمها فيما هي تجتاز المنعطف الأخير. نفخت أنفاسها من بين أسنانها عندما استلمت أخيراً الطريق المستقيم الذي يمتد مسافة كيلومترين ويشير إلى انتهاء الرحلة.

همست وهي تعبس بالمطر المنهمر: «عشر سنوات مضت، ولعله نسيك تماماً».

همست لنفسها: لا يهم، طالما أنه ليس هنا.

لن يكون هنا. فقد أخبرتها سينتيا أنه يمضي معظم وقته بعيداً عن واينامو.

قالت وهي تتنهد: «إنه يجمع ثروته. وهو يعمل بجد، لكنه يفرض الإعجاب والاحترام، فقد أعاد لواينامو مجدها. كما أنه يوسّع أعماله، فلم تعد محصورة بهذا المكان بل امتدت إلى استراليا وإلى أماكن أخرى من العالم. سيصبح قريباً رجلاً غنياً جداً».

حتى في سن الرابعة عشرة، كانت سوريل امرأة بما يكفي لتلاحظ تصميم لوك الملفت وذكاءه الحاد الذي يسيطر على طموحه.

كان مهيباً على الصعيد الجسدي، فهو طويل القامة، عريض الكتفين، يتمتع بما يكفي من السلطة والقوة ليسيطر على ما حوله. لوت سوريل فمها ساخرة.

كان أطول منها بخمسة إنشات! لذا، لا عجب في أن تشعر بانجذاب قوي نحوه. فقد كان يمثّل الرجولة الخطرة، قوة مسيطرة غزت أحلامها البسيطة، زارعة في قلبها الخوف والإثارة في آنٍ معاً.

سيل البرد المتساقط على الزجاج الأمامي أخرجها من عالم الذكريات. أضاءت أنوار السيارة أمامها الممر إلى مدخل منزل سينتيا. وهو منزلها الآن، وبيتها للأشهر الستة القادمة.

لمَ وضعت سينتيا هذا الشرط في وصيتها؟ لا بد من وجود سبب وجيه، فجدتها ليست من أصحاب النزوات. لكن سوريل لن تعرف هذا السبب أبداً.

اغرورقت عيناها بالدموع، ونظرت إلى الظلال تحت الأشجار الضخمة التي تشابكت أغصانها فوق السيارة. أشجار تجاوز عمرها آلاف السنوات، وبقيت متشبثة بالحياة بعناد من رأسها إلى جذورها القوية الممتدة. هذه الأشجار بعثت الدفء في قلب سوريل. ورغم غياب سينتيا، ما زال هذا المكان بيتها، البيت الوحيد الذي حظيت به يوماً.

في منتصف الطريق، لاحظت وميض ضوء. لا بدّ أنها المرآة العاكسة عند بوابة بارينجا. أبطأت سوريل لتمرّ بالسيارة بين العمودين، لتجتاز بعدئذ الجسر الصغير...

ـ آه، لا!

هذه المرة داست على المكابح بقوة، مجبرة السيارة على التوقف.

حدّقت سوريل إلى المياه السميكة، البنية اللون، المتدفقة بقوة عبر الجسر. كانت المياه تنذر بالسوء. كم ينبغي أن يبلغ عمق هذه المياه وقوة الفيضان قبل أن يتمكنا من جرف سيارة؟

قالت بصوت عالٍ فيما يداها تتمسكان بالمقود: «ليس كثيراً».

يمكن للسيارة أن تواجه هذا الموقف بالتأكيد! في الطرف البعيد، خلف أشجار الكرز التي كانت سينتيا تفاخر بها مع حلول كل ربيع، لاح سطح المنزل.

همست سوريل: «سأتمكن من دون شك من اجتياز هذه المياه».

وأخذت نفساً عميقاً، وهي تتذكر الإعلانات التلفزيونية حيث تشق السيارات طريقها عبر الأنهر والجداول. لكن سيارتها لم تكن جديدة. وماذا لو تدفقت موجة كبيرة عند وصولها إلى منتصف الطريق؟

صوت زمور حاد جعلها تلتفت، فيما عاودتها الشكوك حول المجازفة. وتعالت دقات قلبها فأغمضت عينيها للحظة؛ وحين عادت وفتحتهما، كان المطر قد توقف.

عرفت من هو السائق خلف مقود اللاندروفر التي يعلوها الوحل والتي توقفت على بعد إنشات من مؤخرة سيارتها.

لست مستعدة! هذا ما خطر لها. راقبت لوك هاردكاسل يترجل من سيارته فيما تصارعت في داخلها مشاعر مختلفة، تراوحت بين الذعر غير المتوقّع وغير المحتمل والخشية والإثارة الحادة.

مشى نحوها كإله العاصفة العابس، رأس داكن عالٍ، ووجه ملفت، قاسي الملامح، يعلوه قناع من السلطة التي لا تلين والتي لم يفسدها ارتجاف عضلة مع اقترابه منها.

ابتلعت سوريل ريقها بسرعة لتريح فمها وحنجرتها الجافين ورفعت يديها عن المقود لتكتشف أنهما ترتجفان بشدة فاضطرت إلى إعادتهما إلى مكانهما وللشد بقوة على المقود.

أشار إليها لوك العاقد الحاجبين أن تفتح النافذة، فراحت تبحث عن المقبض لتجده بعد حين.

قال باقتضاب قبل أن تنزل الزجاج كلياً: «لا يمكنك أن تعبري، فالطريق غير آمن. تراجعي وقودي سيارتك إلى منزل العائلة».

بللت سوريل شفتيها الجافتين: «منزل العائلة؟ هذا منزل العائلة».

ابتسم لوك في وجهها: «لا، لم يعد كذلك. فقد بنيت منزلاً جديداً عند آخر الطريق».

وعندما بقيت تحدق إلى عينيه الرماديتين الباردتين، أضاف:

ـ ما كنت أخطط لتمضية حياتي في تلك المقطورة يا سوريل.

ـ حسناً... لا، بالطبع لا.

فكّري في شيء ذكي ومفيد تقولينه، هذا ما راحت تمليه على عقلها.

ـ أستطيع بالتأكيد أن أعبر بالسيارة! لا تبدو المياه عميقة، كما يمكنني أن أرى طرفي الجسر.

ـ الوضع خطر . . . فمستوى المياه تجاوز منتصف عجلات السيارة. ولا يمكن التنبؤ بما قد يحصل في مثل هذا الطقس، وقد يتساقط المطر في أيّ لحظة.

وأضاف بلهجة آمرة وهو يستقيم: «سأتبعك».

ـ انتظر . . .

لكنه كان قد استدار وابتعد متوجهاً إلى سيارته. وبالرغم من استيائها من لهجته الآمرة المتغطرسة، إلا أن عينيّ سوريل لاحقتا قامته الطويلة، وخطواته الطويلة السهلة. لكم راقبته هكذا . . . كانت تبقى مأخوذة به بحيث لا تهتم بأي شيء آخر.

لقد فعلت ذلك مئات المرات، كما خطر لها. لكنها كبرت الآن وتخلّت عن هوس المراهقة، علماً أنها شعرت بالغيظ إذ اكتشفت أنّ عقلها لم يوصل هذه الرسالة بعد لجسدها.

لم تكن تخشى أن تستسلم لأهوائها. فالإرادة الحديدية وضبط النفس اللذان اكتسبتهما أثناء عرضها الأزياء أمام مصورين مستبدّين عززتهما عنايتها بوالدها في السنتين المنصرمتين.

وهذا لا يعني أنها ندمت على عملها في مجال عرض الأزياء أو على عنايتها بوالدها. فحين أدركت أنه يشتاق إليها بما يكفي ليمتنع عن تناول الطعام كلما ابتعدت عنه، تركت عملها واستأجرت منزلاً واستقرت معه كرفيقة دائمة. وبطريقة ما، وبين أطلال حياته، جمعهما حب عميق، أعمق من أن تعبّر عنه الكلمات.

وعندما فارق الحياة، كانت قد صرفت المال الذي كسبته من حملة فونيير كله تقريباً على العناية به. لكن الأمر ليس مهماً؛ وكانت لتفعل ذلك مجدداً إذا ما أتيحت لها الفرصة.

استعدت للتراجع بالسيارة. الدم الحار الذي يتدفق في عروقها مثير للقلق فعلاً، إنما لا علاقة له بالمشاعر. إنها تشعر بالانجذاب نحو لوك هاردكاسل،

ولطالما فعلت. لكن، وإن كان يجذبها جسدياً، فبإمكانها أن تسيطر على تجاوبها مع سحره المغناطيسي. لقد شفاها الزمن، وهي لم تعد تعتقد أنها مغرمة به.

قالت لنفسها بحزم: «الأمر غير مناسب، لكنه ليس كارثة».

سمعت من خلفها باباً يغلق، تبعه صوت انهمار المطر على السقف، كما لو أن الطوفان انتظر حتى وصل لوك إلى سيارته.

رمشت بعينيها عندما انعكست أنوار سيارته الأمامية في المرآة، وأعطى التفافه الاشارة إلى ضرورة الانطلاق.

انقبضت معدتها، لكنها أضاءت أنوار سيارتها لتعلمه أنها فهمت وبدأت تتراجع نحو الطريق.

رأت عبر الجسر عينين لامعتين تنظران إليها، فداست على المكابح بقوة مجدداً.

على الضفة البعيدة، وبين أغصان شجرة كرز مغمورة بالمياه جزئياً، وقف قط كبير مبلل وقد فتح فمه على اتساعه وبدأ يموء.

ـ باغي!

كافحت سوريل لتفتح الباب. لا بدّ أنه يعيش حياة قاسية وصعبة منذ وفاة سينتيا. تركت مقبض الباب، وضربته بكتفها فكادت تقع عندما انفتح على اتساعه.

استعادت توازنها وصفقت الباب قبل أن تعدو نحو الجسر. تجاهلت صراخ لوك والمياه الهادرة عند قدميها، وركّزت على القط الذي لطالما أحبته جدتها.

ـ سوريل، توقفي!

صرخة لوك جعلتها تتوقف. وما إن توقفت حتى فقدت القدرة على البقاء مستقيمة. المياه المتدفقة، تدافعت عند ساقيها وقدميها، لتتجاوز ركبتيها. تملكها الرعب حين بدأت تترنح، وراحت تضرب بذراعيها فيما هي تقع.

يدان قويتان أمسكتا بكتفيها من الخلف، وأسندتاها بقبضة من حديد،

فيما وقف لوك عكس التيار ودفعها إلى الأمام.

صرخ بها: «تابعي التقدم، تباً لك».

راحت المياه ترتفع بسرعة، وبالرغم من أن لوك رجل قوي، متناسق الجسم، إلا أنه وجد صعوبة في البقاء واقفاً على قدميه في مواجهة هذه القوة المخيفة.

- إني أتقدم، إني أتقدم.

همست بذلك، مستجمعة كل ما تبقى من قوتها لتخطو الخطوات الأخيرة معه.

عندما وصلا إلى اليابسة، جذبها من المياه التي اختلطت بالطين الأحمر، وحبسها بين ذراعيه القويتين. شعرت بصوته الخفيض والفتاك يتردد في جسدها:

- أيتها الغبية المجنونة! ما خطبك بحق السماء؟

انتفضت سوريل حين ارتطم غصن بالحافة. وللحظة طويلة، توتر جسد لوك القوي وهي بين أحضانه. وبالرغم من المطر المتساقط، اخترقت الحرارة ملابسهما المبللة، مشعلة نيراناً محرّمة... نيراناً ما لبث أن أخمدها صوت لوك الفظ فيما هو يدفعها خطوات عدة بعيداً عن حافة الجسر.

- لو كان ذاك الغصن أكبر بقليل لجرفك معه... هذا إذا ما بقيت واقفة على قدميك.

وتركها بشكل مفاجيء.

ارتجفت وهي تتذكر كيف راحت المياه تلعق قدميها.

- كنت بخير حتى صرخت أنت!

- ليس لوقت طويل. ماذا كنت تفعلين بحق الجحيم؟

طرح عليها هذا السؤال، فردت وهي تشير إلى القط الذي توقف عن المواء لكنه بقي قريباً من المياه: «باغي عالق في الشجرة، لا يمكنني أن أتركه يغرق».

- هذا القط يثير المتاعب أكثر من أي حيوان آخر في المنطقة.

قالت سوريل بسخط: «إنه عالق، سيقع في المياه إن لم أنزله».

كان المطر قد بللهما كلياً وبدأ يسيل بإصرار على عنقها.

يعرف لوك كيف يرعب الآخرين حتى وهو مبلل كلياً. التمعت عيناه الرماديتان بنار زرقاء حادة. تكلّم بنبرة متسلّطة لاذعة، قائلاً: «لن تقتربي من تلك الشجرة، كل ما على باغي أن يفعله هو أن يقفز عن ذاك الغصن إلى غصن آخر في الشجرة التي خلفه، ليتمكّن من الوصول إلى البرّ».

ونظر إلى الأعلى بسرعة حين أعلن صوت مكتوم عن وصول المزيد من الحطام، فأمرها بصوت أظهر أنه يكاد يفقد أعصابه: «ادخلي إلى المنزل».

وأدخل يده في جيبه ليخرج مفتاحاً، مدّه لها قائلاً:

- هذا المفتاح القديم يفتح الباب الخلفي. هيا، اذهبي!

قابلت نظرته العنيدة بتصميم وبشيء من التحدي:

- بعد أن أنزل باغي. لا بأس... أعلم أنه يخدش. سأحترس.

- لِمَ هذا الاهتمام المفاجيء بالقط؟

ارتفعت ذقن سوريل فيما راح يتأمل وجهها بعينين ضيقتين:

- إنه هو سينتيا!

قال بلهجة ساخرة فيما عكست ملامحه المنحوتة ازدراءه: «توفيت جدتك منذ سنتين. ولم ألاحظ أيّ اهتمام منك بهذا الحيوان طوال هذه المدة».

أجفلت وردّت: «أنّى لك أن تعرف؟ فأنت لا تعيش هنا».

ليتها عضت لسانها قبل أن تتكلم!

رمقها بنظرة حادة وسأل: «من قال لك هذا؟».

- سينتيا. قالت إنك تعيش معظم الوقت في أوكلاند.

مع ماري أونيل. أم أنها في واينامو أيضاً الآن؟ هل تزوجا؟ وللحظة مرعبة

www.elromancia.com

كبحت سوريل رغبتها الجامحة في أن تجلس أرضاً وتطلق العنان لدموعها.

قال لها لوك بلهجة عادية: «أنا أعيش هنا، في واينامو».

حيث أنتمي وحيث لستِ سوى دخيلة، بحسب ما أشارت نبرته.

لو علمت هذا، هل كانت لتعود إلى بارينجا؟

نعم، فليس لديها مكان آخر تقصده.

واستدار مبتعداً وقد بدا متعباً من كل ما جرى: «سأحضر القط».

ليصل إلى باغي، عليه أن يخوض في المياه المتدفقة، فقالت له سوريل بسرعة:

ـ لا! سأحضره أنا... فهو من مسؤوليتي الآن.

ـ لا تكوني سخيفة. لن أقف وأراقبك وأنت تغرقين.

تخبط قلب سوريل بين أضلعها حين لاحظت غصناً آخر يتلوى في المياه، فيما بدت فروعه قاسية وحادة.

صرخت به: «انتبه!».

تجنّبه بمزيج من التوازن والقوة والرشاقة الحادة التي شوشت كل خلية من خلايا دماغها.

عضت على شفتها السفلى، ولم تسترخِ إلا حين رأته يصل إلى الشجرة. وعندما مدّ ذراعه الطويلة ليحمل الهر عن الغصن، استقام باغي بعد أن جرحت كبرياؤه واستعد للتحرك نحو الغصن الذي أشار إليه لوك، والذي لا يبعد سوى وثبة واحدة عن برّ الأمان.

أمسك به لوك، ولم يجفل حين ضرب الهر يده بمخالبه الحادة. عندئذ فقط، استكان باغي بين ذراعيه بعد أن انتقم لشرفه.

عندما عادا إلى برّ الأمان، همست: «شكراً لك. لكن... لا تعد الكرّة مجدداً، اتفقنا؟ أنا آسفة! ظننته فعلاً في خطر».

فردّ لوك وهو يضع الهر أرضاً: «إنه في خطر المجازفة».

ـ سآخذه...

قال بنبرة مخيفة: «سوريل، ادخلي إلى المنزل قبل أن أفقد الذرات المتبقية من صبري. اعلمي أن لدي أمور أفعلها أفضل من الوقوف تحت المطر وتأمل جسدك الأنيق باهتمام ودقة».

هذه المرة، كان ازدراءه واضحاً وجلياً، فأطرقت وقد اصطبغت وجنتاها.

تملكها الغضب منه ومن نفسها لتجاوبها معه، فردّت بلهجة انتقاد حادة:

ـ أنا أيضاً مسرورة بلقائك مجدداً يا عزيزي لوك، بعد كل هذه السنوات.

لكن جملتها فقدت الكثير من تأثيرها بسبب رعشة جعلت الكلمات تتعثر وهي تخرج من فمها.

جاءت ضحكته خفيضة ومن دون فكاهة، ضحكة باردة بقدر عينيه الرماديتين اللتين تأملتا وجهها:

ـ آسف، لم أظهر لك أي ترحيب حار. ادخلي قبل أن تصابي بنزلة برد.

استدارت وقطعت الطريق المؤدي إلى الباب الخلفي ركضاً، غير مهتمة ما إذا كان قد تبعها أم بقي في الخارج تحت المطر.

أدارت المفتاح في القفل وأذعن الباب ليدها الرطبة. في الغرفة الواسعة، أضاءت النور، وراحت تراقب لوك وهو يفتش في خزانة ليخرج منشفة قديمة استخدمها لفرك باغي بسرعة وفعالية.

تسكعت سوريل في الغرفة وقد تملّكها الامتعاض من الطريقة التي ينعكس بها الضوء على بشرته، وملامحه التي تجعل منه رجلاً ملفتاً طيلة حياته. انقبضت معدتها، وبدأت ترتعش. لا، ليس الآن... ليس مجدداً! ليس أمام لوك.

رفع نظره إليها، وقد التمعت عيناه الزرقاوان كنصل حاد، ثم قال: «مرحباً بعودتك».

٢ ـ هل تختبئين؟

قالت سوريل من دون تفكير: «نحن عالقان هنا، أليس كذلك؟».

ـ هذا صحيح.

هذه الكلمة الوحيدة التي تلفظ بها جعلتها تصرف بأسنانها.

إنها معزولة عن العالم مع آخر رجل قد تختاره! وملابسها وأدوات زينتها وحتى فرشاة أسنانها في الطرف الآخر من القمر.

احمرّت وجنتاها وقالت من بين أسنانها: «أرسلت صندوقاً من أميركا...».

ـ لقد وصل منذ أسبوع... وضعته في غرفة نومك.

ـ شكراً.

إذاً، لديها ملابس! وأشاحت بنظرها بسرعة عن صدر لوك وكتفيه العريضتين.

ـ لا يمكنك أن تبقى هكذا من دون أن تصاب بذات الرئة أو بالروماتيزم أو بوعكة ما.

فقال ببرود: «علينا أن نرتجل. عندما وصل الصندوق، استنتجت أنك ستصلين بعده؛ لذا، اتصلت بشركة الكهرباء وشركة الهاتف، لكنني اكتشفت أنك تدبرت الأمر لتعود هذه الخدمات. الحمام الساخن سيحمينا من الانخفاض الحاد في حرارة الجسم، وهو ما يرجّح أن يصيبنا».

وتوقف ليضع أرضاً باغي الذي كان يتلوى بين يديه. جفّ فم سوريل حين

لاحظت حركات العضلات تحت قميصه.

وشعرت بالسخط يتملكها. فقد كانت واثقة تمام الثقة من أنها تخطت مشاعرها نحو لوك. تباً له، أحياناً يمر عليها أسبوع من دون أن تفكر فيه، مع أن الأمر لم يكن أكثر من انجذاب مراهقة... وعناق واحد ذابل. شعرت الآن وكأن السنوات التي أمضتها بعيداً عن بارينجا لم تكن! نظرة واحدة إلى عينيه الرماديتين أعادتها إلى أيام المراهقة الكريهة.

يمكن أن تتوقف المسألة عند هذا الحد. الوقوع في شرك الشوق إلى لوك سيقودها إلى البؤس مباشرة. بدا أنه يكرهها ويحتقرها، وهي... حسناً، ستحافظ على قلبها جيداً، لئلا يفطره مجدداً.

ماء باغي وتمطّى بكسل وبرباطة جأش ذكّرت سوريل بالذكر الآخر في الغرفة، ثم توجه إلى قفصه ورفع ناظريه بتوقع. فرو الهر الأسود الرطب يلتصق بجسد قوي، لا يبدو عليه الجوع، ما يعني أن أحدهم كان يعتني به أو أنه أكثر من قادر على الاعتناء بنفسه. قالت: «ثمة مناشف في الصندوق. أنا آسفة يا لوك، فالاندفاع لإنقاذ باغي كان تصرفاً أحمق من قبلي».

فردّ بصراحة قاسية: «للغاية، فما من حيوان يستحق أن تخاطري من أجله».

عادت مجدداً إلى المراهقة وسألت: «ماذا عن الجواد الذي أنقذته من الإعصار؟ لقد قطعت النهر سباحة لتعيده. أنا على الأقل، كان الجسر تحت قدميّ!».

هزّ كتفيه بلامبالاة: «كنت فتياً وغبياً. كما أنّ باغي كان آمناً. إنه ممثل بارع وقد رأى فرصة ليعود إلى واينامو من دون أن يبلل قدميه».

تفادت تقويمه الساخر بتعبير متحفظ: «عندما توفيت سيتيا، اتصلت بالطبيب البيطري ليأتي ويأخذه. قيل لي إن صديقاً أخذه ليهتم به، ثم... حسناً، انشغلت».

انشغلت بتنفيذ العقد الذي وقعته مع فونيير، كما انشغلت بالاهتمام بوالدها.

عضّت على شفتها وأردفت: «افترضت أن باغي بخير. لم يكن لدي فكرة أنك تهتم به».

نظر إليها لوك بهدوء. بالرغم من مظهرها المبلل والموحل، تألق جمالها النادر، وقد عززته هالة من الإغراء المتزن. طرد بعنف صورتها بين ذراعيّ رجل آخر، وفكّر أنها عارضة أزياء ناجحة جداً لأنها تثير أحلام الرجال الخفية وشعور عدم الأمان عند النساء.

قال بحدة: «طلبت من الطبيب البيطري أن يتركه هنا. لم تطلبي مني أن أهتم به؟ ما كنت بحاجة لأن تقضي عليه».

رمقته بنظرة اتهام: «من قال إني أنوي القضاء عليه؟».

ـ هذا ما ظن الطبيب البيطري أنك تريدين منه فعله.

صاحت به: «لم أفعل! لقد أساؤوا الفهم. أردته أن يبقى آمناً في عيادة الطبيب بدلاً من أن يعيش حياة قاسية».

وتوقفت عن الكلام، ثم انحنت برشاقة لتداعب فرو الحيوان، وقد أظهرت ملابسها الرطبة تفاصيل جسدها.

شتم لوك بصمت فيما بدأ جسده يتجاوب معها. لكن، وبالرغم من أنه عاجز عن السيطرة على ردّ فعله البدائي، إلاّ أنه قادر بالتأكيد على تجاهله. وعندما لاحظ ارتعاشها وهي تستقيم، أمرها باختصار: «اصعدي إلى أعلى واغتسلي».

ـ وماذا عنك؟

ـ سأستحم في الطابق السفلي.

عندما لم تتحرك تأملها مطولاً ثم سألها بصوت ناعم، حمل تقريعاً متعمداً:

ـ هل تحتاجين للمساعدة في خلع ملابسك؟

انتفضت سوريل وردت: «لا!».

وفي منتصف الطريق، أدركت أنه عرف تماماً كيف سيكون ردّ فعلها. حسناً، لقد كسب لوك الجولة الأولى، هذا ما خطر لها وهي تزم فمها. لكنها لن تخوض أيّ معركة معه. فهي ستقيم في بارينجا ستة أشهر نزولاً عند رغبة سينتيا، وبما أن لوك يعيش في المنزل المجاور، عليها أن تقيم علاقة ودّ وصداقة معه.

صداقة؟ تردد هذا السؤال بنعومة في رأسها. فردت عليه بحدة: نعم، صداقة! إذا ما قررت أن تجعل من بارينجا مكاناً أنيقاً يقدم المنامة والفطور، فلا يمكنها أن تعادي لوك. فهو لا يتمتع بنفوذ واسع في نورثلاند وحسب، بل له أيضاً وزنه في مشاورات مجلس الإقليم بصفته أقرب جيرانها.

انحنت من فوق حافة السلالم وقالت: «سأفتح الصندوق وأعطيك بعض المناشف».

ـ حسناً.

وركضت إلى الأعلى لتفتح باب غرفة نومها القديمة. وبالرغم من أن الصندوق قد فتح من قبل إلا أنه لم يُعبث بمحتوياته. إنه لوك من دون شك، فهو لا ينسى شيئاً.

سرت في جسمها قشعريرة بطيئة فيما كانت تبحث في محتويات الصندوق التي لا يبدو أنها تمثل عشر سنوات من حياتها. لكنها كل ما استبقته.

استقامت سوريل وحدقت إلى الغرفة؛ كانت الرياح العاصفة تحمل زخات المطر فتضرب النافذة، مذكرة إياها بالمطر الذي كان يتساقط في الجهة الأخرى من العالم عندما وضّبت الصندوق بعد وفاة والدها. وبالرغم من ألمها الجامح، لم تشعر إلا بالامتنان لوفاته، هذا الموت الذي تاق إليه منذ وقوعه فريسة المرض.

عثرت أصابعها المرتجفة على المناشف، فأخذتها وخرجت من غرفة النوم،

لكنها توقّفت عند الباب عندما رأت لوك وقد وصل إلى منتصف السلالم.

قالت وهي تعطيه منشفة كبيرة: «تفضل. أخشى أني لا أحمل معي صابوناً».

شعرت بنظرته ولاحظت كيف صمت للحظة قبل أن يجيب:

- شكراً، تبدين شاحبة. عليك أن تستحمي.

عندما دخلت إلى الحمام، تصارعت سوريل مع أزرار قميصها إذ عجزت أصابعها الباردة عن فكّها. وحين تمكنت أخيراً من ذلك، كانت الرعشات قد تحولت إلى ارتجاف شديد. وراحت أسنانها تصطك وهي تنزل سروالها لتقف تحت المياه الساخنة.

يمكنها أن تتأقلم مع فكرة العيش قرب لوك، لا بل عليها أن تفعل. فليس لديها مكان آخر تقصده أو ملكية أخرى غير بارينجا.

قالت لنفسها بابتسامة ذابلة: «كل ما تحتاجينه هو المحافظة على هدوئك وعدم التورط معه».

* * *

فيما كانت سوريل عائدة، حافية القدمين لكن دافئة من جديد، وقد ارتدت بنطلون جينز وكنزة طويلة وواسعة وجدتها في الصندوق، سمعت باب غرفة الغسيل يفتح ثم يغلق. تنهدت تنهيدة ارتياح. آلة التجفيف تعمل بالطبع، ما يعني أن لوك يمكن أن يجفف ملابسه.

أمضت وقتها في الحمام وهي تستخدم تقنيات الاسترخاء والتهدئة التي أجادتها في السنوات الماضية. وكالعادة، جعلتها هذه التقنيات تهدأ فاعتقدت أنها جاهزة لمواجهة لوك. لكن حين رأته يتقدم في الممر عارياً إلا من المنشفة الكبيرة التي لفها على خصره، تبخرت رباطة جأشها وسقطت في فخ من الأحاسيس التي جعلت فمها يجف وكل خلية من خلايا جسمها تتكهرب.

لم يبدُ لوك سخيفاً في لباسه هذا. كانت المنشفة الخضراء تتناقض بشكل رائع

مع بشرته النحاسية، وهو يتقدم منها... رجل غامض، خطر، قادم من أحلام النساء البدائية، أنيق وفتّاك. في المرة الوحيدة التي عانقها فيها، رأت بريقاً أزرق في عينيه، لكنهما الآن مصقولتان وكامدتان كالفضة القديمة.

جاهدت لتتكلم: «كم من الوقت سيتطلب تراجع منسوب النهر برأيك؟».

رد بلهجة عادية: «عندما يتوقف الفيضان. في ساعات الصباح الأولى على الأرجح. لكن، إذا ما استمر المطر على هذا الحال فقد لا يحصل هذا. سأضطر إلى البقاء هنا».

أستمضي الليلة وحدها مع لوك؟ رجل يبدو بربرياً، ذا دم حام من ماضٍ قديم ورومانسي؟ غاصت أصابع قدمي سوريل الحافيتين في السجادة.

- لِمَ بحق الله بُني هذا المنزل هنا؟

كانت تعلم أنها تبدو نكدة، لكنها تابعت بعناد: «بين الرافد ومصب النهر! حتى لو اعتمد أجدادك على الطريق البحري، لا بد أنهم فكروا في إمكانية أن يفيض النهر».

رفع حاجبيه وهو يقول بصبر مغيظ: «لِمَ كان عليهم أن يفكروا في ذلك؟ لقد اعتادوا استخدام النهر الذي كان أعمق حينذاك... ليصلوا إلى الرصيف تحت المنزل. كما أنهم حرصوا على بناء المنزل على تلة لا يصل إليها الفيضان».

فقالت بضعف: «وإن يكن».

وركزت نظرها على نقطة خلف تلك الكتف العريضة والعارية ثم أضافت بمرح: «أتساءل ما هو مذاق طعام باغي... هل لديه طعام هنا أم أنك تطعمه في واينامو؟».

التوى فمه: «لست مضطرة لسرقة طعامه. عندما عرفت أنك آتية، حضّرت بعض السلع».

- سلع؟

رددت كلمته فيما رمشت بعينيها وهي تقاوم رغبتها في التراجع. قالت لنفسها هازئة: تماسكي؛ أنت تتصرفين بحماقة! أو كولد مغرم لا يفكّر إلا بهورموناته.

قال لها باقتضاب: «طحين، علب طعام محفوظ، بعض الأطباق والسكاكين، قدور وأوعية... وضعت مديرة منزلي لائحة بما قد تحتاجينه. تجدين كل هذا في الخزانة، كما تجدين طعاماً في الثلاجة».

ـ شكراً جزيلاً لك.

شعرت بتيبّس في أطرافها، لكنها استدارت وتقدّمته إلى المطبخ مضيفة:

ـ هذا لطف بالغ منك. عليك أن تعلمني بكم أدين لك.

مرت لحظة صمت قبل أن يجيب متشدّقاً:

ـ بدا لي أن حق الجيرة يفرض هذا التصرف. سأرسل لك فاتورة.

هل جرحته؟ حسناً، لقد جرحها هو أيضاً. بدا جلياً أنه يظنها أغبى من أن تحمل معها أدوات المطبخ أو الأواني، هذا من دون ذكر الطعام، ومن أن تفكر في إعادة الكهرباء والهاتف. ففي سيارتها، صندوق كبير مليء بالسلع كالتي ذكرها فضلاً عن الطعام الطازج.

من جهة أخرى، إنها المسؤولة عن الوضع الذي يجدان نفسيهما فيه الآن.

فتحت الخزانة وحدقت إلى كمية متنوعة من الأطعمة المحفوظة، محاولة أن تطرد من ذهنها الخائن صورة لوك، الرجل الضخم، المسمّر، الذي يقف خلفها.

قالت بصوت عالٍ: «في ليلة كهذه، اليخنة ممتازة لكن الحساء أبسط».

وخفقت الأنوار بشكل جلي. تجاهلت غمغمة لوك وأضافت:

ـ وأسرع، أرجو ألا تقطع العاصفة الكهرباء.

ـ هل تجيدين تحضير الحساء؟

لم يحاول إخفاء تشككه. وشعرت سوريل بالفخر لأنها حافظت على ثبات

صوتها وهي تجيب: «نعم. ليتني فكرت في إخراج السخّان، لكنني كنت مصممة على الوصول إلى البيت».

فقال بصوت سويّ: «البيت؟».

ـ لطالما اعتبرت بارينجا منزلي.

ومدت سوريل يدها لتخرج إحدى العلب، وتشبثت بها مدعية أنها تدرس محتوياتها: «سأبدأ بتحضير الحساء».

فقال: «سأرى إن كان هناك حطب في الكوخ. ناديني إذا ما احتجت لأي مساعدة».

انتظرت حتى سمعت الباب يغلق خلفه قبل أن تطلق الأنفاس التي حبستها طويلاً.

تناديه إن احتاجت للمساعدة؟ لن تفعل هذا. كما ستجعله يندم على شكّه في قدرتها على الطبخ.

وبعد نصف ساعة، وبعد أن خفقت الأنوار مراراً، حملت وعاء الحساء إلى المكتبة الخالية من أي أثاث على غرار بقية المنزل. بعد وفاة سيتيا التي تبعتها على الفور تقريباً إصابة والدها بجلطة، اضطرت سوريل إلى تخزين أثاث جدتها ودفعت المال لوكالة لتقوم بتأجير المنزل.

لم تكن الغرفة المهجورة، ذات الرفوف الخالية من الكتب، والعارية من كل شيء باستثناء الستائر السميكة والسجادة هي التي خطفت أنفاسها وأثارت أعصابها.

كان لوك منحنياً يضع مزيداً من الحطب في المدفأة. كان الضوء ينعكس ذهبياً على صدره العاري والشرارات تتطاير من شعره الداكن. وعلى بعد خطوات، جلس باغي وقد لفّ ذنبه حول قائمتيه، يراقب الرجل والنار برضا عذب.

تقدّمت سوريل في الغرفة وهي تحاول إخفاء تجاوبها المشوّش مع هذه

الرجولة الصرفة. ففضلاً عن مزاياه الجسدية الملفتة، يتميز وجه لوك القاسي بوسامة تلفت نظر أي امرأة. إلا أن الجاذبية الفاتنة التي تنضح منه، وهي مزيج من القوة والسلطة، وطاقته الجنسية المغناطيسية، هما اللتان قوّضتا الدفاعات التي بنتها لنفسها بحرص.

تجاهلت هذا الشعور، وقالت هاذرة: «نسيت كم يمكن للطقس أن يبرد أثناء عاصفة صيفية».

وتجاهلت قلبها الذي راح يتخبط بين أضلعها وهي تقدّم الحساء للوك.

أخذ منها الطبق، ورفع حاجبيه استهزاءً عندما حرصت على ألاّ تتلامس أصابعهما: «رائحته زكية. أعطني طبقك قبل أن تجلسي».

ـ سأحضر الخبز المحمص.

ووضعت الطبق أرضاً ثم فرّت لتتنفس بعمق في رحلة الذهاب إلى المطبخ والعودة منه.

وبعد أن جلسا قبالة النار، وقد وضعت طبق الخبز بينهما كسياج صغير، أبقت سوريل عينيها على طبقها، آملة ألاّ يدرك لوك كم تشعر بوسامته.

قال بصوت عادي: «الحساء ممتاز».

لم يقل أكثر وبدا أن هذا كل ما ستناله من مديح. فقالت بسخرية عذبة:

ـ من المدهش ما يمكنك أن تفعله ببعض علب الطعام وبعض الأعشاب المجففة.

وشربت بعض الحساء، ثم حملت الطبق بيديها الاثنتين كدرع، إنما درع واهٍ وغير مفيد.

ـ سأذهب غداً إلى كيري كيري لأستعيد الأثاث.

قال من دون اهتمام: «إذا كانت الطريق مفتوحة».

تصلبت سوريل: «وهل يُحتمل أن تُقطع؟».

ـ يبدو وكأننا سنشهد انزلاقاً عند أعلى التلة.

ما من مشكلة بالنسبة إليه طبعاً، لكن إذا ما حصل انزلاق فسينقطع التيار الكهربائي حتماً. أطالت سوريل التفكير في إمكانية أن تضطر للبقاء في بارينجا حتى يعود التيار، لكنها ما لبثت أن طردت هذه الفكرة. فلا يمكنها أن تفعل شيئاً الآن.

امتزجت رائحة الحساء الزكية برائحة الخبز المحمص ورائحة خشب الأوكاليبتوس في المدفأة. شربت سوريل المزيد من الحساء قبل أن تقول بلهجة عادية: «أما زال باغي مهووساً بصيد الانقليس؟».

وابتسمت وهي تنظر إلى الهر، وشعرت بالتسلية وهي تراه يموء فيما لسانه يمر على أسنانه الحادة وكأنه يستذكر ماضيه المجيد.

ابتسم لوك ابتسامة سريعة: «نعم، علماً أن ثمة خلاف طفيف في الرأي بينه وبين الانقليس، حول من يصطاد من».

ـ لطالما أملت سيتيا أن يتخلص من عادته هذه.

ـ هذه مشكلة الهوس... لا يمكن للمرء أن يتخلص منه بسهولة.

وتغير صوته قبل أن يسأل: «أين زوجك؟».

ـ ماذا؟

ورفعت نظرها لتقابل عينين غاية في البرودة ثم أردفت: «هل تمازحني؟ ليس لدي زوج».

راقبها بثبات: «عندما اختفيت عن الأنظار منذ سنوات، أشيع أنك تزوّجت».

ـ اختفيت عن الأنظار لأهتم بوالدي.

وبعد لحظة صمت، أنهت كلامها بهدوء: «لقد تعرض لجلطة».

ـ كيف حاله الآن؟

هبّت واقفة وتوجهت إلى النافذة. لقد حلّ الظلام فيما كانت تستحم، وكل ما استطاعت رؤيته الآن هو أزهار الماغنوليا الزهرية اللون التي راحت

www.elromancia.com

الرياح والأمطار تتقاذفها يميناً ويساراً.

قالت بكآبة: «لقد توفي. مات منذ شهر... إنه مدفون قرب والدتي».

ـ أنا آسف.

أشاحت سوريل بنظرها عن الدمار في الخارج لترسم ابتسامة صغيرة على شفتيها: «في الواقع، لقد ارتاح إذ أمضى السنتين الأخيرتين محمولاً من سريره إلى كرسيه المتحرك، وكان يكره ذلك. كما أصبح عاجزاً عن الكلام. لقد طوّر شيفرة تعتمد على طرف العينين، لكنه حاول بعد فترة وبجد أن يموت».

بعد أن تمكن من إعلامها بندمه على كل ما فعله وبعد أن طلب منها أن تسامحه، استسلم وقد عجز عن حمل عبء ما اعتبره كخيانة منه أدّت إلى تدمير حياتها.

ـ تباً!

قال لوك هذا، وهو يقف على قدميه ويقطع الغرفة ليقف قبالتها. وأدهشها أن يأخذ يديها الباردتين بين يديه الغليظتين ويبقيهما هناك حتى بدأتا تدفآن. بدت ملامح وجهه العنيدة أكثر رقة ولاحظت اهتماماً حقيقياً في عينيه الداكنتين.

كبحت سوريل دموعها: «لقد عاش في جحيم حقيقي. لم يكن سعيداً أبداً».

ـ هل كنت تعتنين به؟

آلمها أن تقف هناك معه، فشدّت يديها الأسيرتين منه. أطلقهما وتراجع ليدعها تجلس من جديد. جلست تحدّق إلى النار المستعرة وقد تشبثت بطبق الحساء بإحكام.

ـ مع بعض المساعدة.

مدّ لوك يداً طويلاً وانتزع قطعة حطب من الصندوق قرب النار. ومن خلف أهدابها المسدلة نسبياً، راحت سوريل تراقبه. التفت لوك ولاحظ نظراتها فضاقت عيناه لتصبحا قطعتين من الفضة الباردة.

ـ ما الذي جعلك تقررين العودة إلى بارينجا؟

قالت له: «أحب هذا المكان».

ضربت حبات المطر النوافذ بقوة فيما سأل بصوت حريري:

ـ ما هو السبب الحقيقي؟

وعندما لم تجب، أصبح صوته أقسى: «أريد الحقيقة، سوريل».

استحال لون عينيها داكناً، واشتد فمها المثير للحظة قبل أن يسترخي وترتسم عليه ابتسامة حملت توبيخاً ساخراً، وفتنة لامتناهية، ورباطة جأش باردة.

أخفضت صوتها قليلاً وقالت: «أنت متعجرف حقاً...».

ثم ابتلعت الكلمات التي تبادرت إلى ذهنها أولاً واستبدلتها بابتسامة عذبة قبل أن تضيف: «لوك، ما الذي يجعلك تعتقد أنّ من حقك أن تطالبني بأجوبة؟».

انقبضت عضلات معدته كما لو أنها ضربته عليها بقوة.

ـ كم من الوقت ستبقين هنا؟

أسبلت سوريل أهدابها: «خلال الأشهر الستة القادمة على أي حال».

ـ وماذا ستفعلين خلال هذه المدة؟

ـ كل ما أرغب فيه.

حدّقت إليه بنظرة غامضة، وقد التوت شفتاها بابتسامة بطيئة أخرى، ابتسامة تحضّ على الشغب، ابتسامة أحرقت آلاف الصور.

ـ لا تقلق، أنوي البقاء في المنزل ومحيطه. لن تلاحظ حتى وجودي.

تبع غريزته وقال: «يمكنني أن أشتري بارينجا منك. اختاري وكيلي عقارات لتقدير ثمنه وسأدفع به سعراً جيداً».

ـ ماذا ستفعل به؟

www.elromancia.com

ـ سأفكر في شيء ما.

راقبها عن كثب، لكنه لم يستطع أن يكشف شيئاً من تعبيرها المتحفظ.

قالت بهدوء: «لا يمكنني بيعه، فقد تركته لي سينتيا كأمانة».

ـ لا بد أن الأمر تسبب لك بصدمة.

ضاقت عيناه عندما ترددت وأشاحت بوجهها، فانعكست النار على ملامحها الأنيقة، من جبينها العالي إلى حاجبيها المعكوفين وأنفها القصير المستقيم. لكن كلمة أنيقة ليست الكلمة التي قد يستخدمها ليصف فمها المثير... أو ذقنها المصمم، العنيد.

سألت بدهشة: «لماذا؟ الشيء الوحيد الذي أنقذ واينامو وأبقاه هو الأمانة العائلية التي وضعها والدك».

التوى فم لوك. هذا صحيح. لم تستطع زوجة أبيه أن تنقلب على الأمانة، إلا أنها أنفقت ما يكفي من المال في المعركة القانونية.

ـ إذاً، ممن كانت سينتيا تحمي بارينجا؟

هزت سوريل كتفيها، وحملقت فيه بعينيها الرائعتين، الواسعتين والمليئتين بالتحدي كعينيّ هرة.

ـ ما من أحد. أفترض أنها كانت امرأة حريصة، أو لعل تجربتك أخافتها.

هسّت النار، مرسلة شعاع لهب أزرق مائل إلى الخضرة أنار بشرتها العاجية، بشرة تثير الرغبة في لمسها لشدة شفافيتها. وتحرّك في أحشاء لوك جوع قديم، فلعنه وذكّر نفسه بأن ما تفعله لا يهمه. فبالرغم من جاذبيتها الكبيرة، لم تكن تعني له شيء. إلاّ أن شيئاً ما يجري هنا، شيئاً لم يفهمه، ما دفعه لسؤالها مباشرة:

ـ ألم تذكر السبب؟

ـ لا.

لكن نبرتها جعلته يشك في أنها تعرف السبب. ولسبب ما، تذكر سيارتها:

قوية، عملية تناسب طرقات الريف... وعمرها حوالى سبع سنوات. إنها سيارة غريبة بالنسبة لعارضة أزياء ناجحة.

مدت سوريل يدها نحو الهر، لكن باغي نظر إليها بغموض، متجاهلاً الأنامل الناعمة.

راقب لوك يدها وهي تسقط على السجادة. توقّف! هذا ما قاله حدسه. أنت لا تريد أن تعرف أي شيء عنها... فهي خطرة! إلا أنه قال بفظاظة: «هل تختبئين؟».

ـ لا.

بدت التسلية في صوتها. وكاد يصدّقها لو لم يرَ التوتر يحرك عضلات وجهها لحظة.

وليخفي الرغبة المفاجئة وغير المناسبة في حمايتها، قال بفظاظة:

ـ يمكنك أن تخبريني إن كنت في ورطة.

ترددت فيما تهرّبت عيناها من عينيه، ثم ضحكت ضحكة صغيرة مصطنعة، ذكرته بزوجة أبيه.

ـ لست في ورطة، وما من سبب خفي خلف عودتي إلى بارينجا. أريد أن أستجمع قواي من جديد... وأفكر في حياتي. لمَ يفاجئك هذا؟

ـ اعتقدت أنك ستعودين إلى العالم الذي جعلتَه عالمك.

شعرت بتشنج: «ستتان مدة طويلة، وعالم الأزياء ذاكرته قصيرة الأجل».

راقبها باهتمام فيما أسبلت أهدابها لتخفي عينيها الواسعتين. وابتسمت مجدداً ابتسامة بطيئة، ترددت على فمها الناعم والمكتنز. لقد رأى زوجة أبيه تتصرف على هذا النحو بالتحديد... تستخدم الوعد المبطّن لتحصل على ما تريد.

إلاّ أنه لم يشعر من قبل بمثل هذه المشاعر الكاسحة.

احتقر نفسه بسبب ضعفه وذكّرها بأن سوريل، وإن تركت واينامو كفتاة

بريئة، إلا أنها لم تنتظر طويلاً لتسجّل انتصارها الأول. وقد تتالت الانتصارات بعدئذ.

حسناً، لا بد أن هذا القدر من الشائعات مخترع. إنما لو كان نصف هذه الشائعات خاطئاً فقد عرفت الكثير من الرجال في حياتها... رجال تخلّت عنهم من دون حتى أدنى قدر من اللياقة. قال:

- أتعنين أنك جمعت ما يكفي من المال وأنت جاهزة الآن للاستمتاع به؟

ردّت بلهفة لاذعة: «أعني أنه في سني لن أتمكن من إيجاد عمل في عرض الأزياء. لقد انتهى الأمر وانقضى! أنا في الثامنة والعشرين لوك، وهو سن متأخر للبدء من جديد».

انحنت لتجمع الطبقين الفارغين وطبق الخبز، غير مستعدة للقاء نظرته الناقدة والمتألقة، وراحت تتساءل عما يفكر فيه.

لا شيء جيد! حسبما لاحظت بعد أن رمقت قسمات وجهه الهادئة بنظرة سريعة.

فاجأها بوقوفه بحركة واحدة قوية ومرنة. وعندما شرعت في الوقوف، ساعدها بقبضة قوية إنما ناعمة.

قال وهو يطلقها: «لا بد أن الملابس جفت الآن».

فتح لها الباب وتراجع ليدعها تمر. ما زالت لمسة يديه ترسل ناراً مستعرة فيها، فأطاعت الأمر الذي لم ينطق به كارهة.

عندما مرّت سوريل قربه استنشقت عطره، وهو مزيج من الصابون ورائحة الرجولة المثيرة، عطر يفوح من لوك وحده دون غيره.

وتعثرت خطواتها. عادت إلى الماضي وإلى الذكريات التي كبحتها طويلاً واحتجزتها في ذهنها. ذكريات ذاك الصيف، حين كانت غارقة في حبه.

وتحرك الخوف الغامر في أحشائها. لا! لن تعيش هذه التجربة من جديد...

قالت بهدوء بالغ: «شكراً لك».

قال لوك وهو يغلق الباب خلفهما: «لا شكر على واجب».

حملت كلماته سخرية مبطنة، فالتفتت سوريل لتجده قريباً جداً منها. تراجعت خطوة إلى الخلف فيما تسارعت دقات قلبها. وللحظة، وقفا يحدقان إلى بعضهما البعض. رأت نيراناً تشتعل في عينيه الرماديتين ففكرت ببلاهة أن ما من نيران في البهو. بعدئذ، انطفأت النيران بعد أن سيطرت عليها إرادة لوك القوية. وراح يتأمل وجهها بلامبالاة ساخرة.

ابتعدت سوريل عنه وركزت على السير بخطى ثابتة نحو المطبخ. وعندما وصلت إليه، وضعت الصينية على الطاولة بقوة جعلت الأطباق تقفز. وبالرغم من أنها لا تستطيع سماعه بسبب المطر المتساقط، إلا أنها شعرت بحضوره.

أمرت نفسها بأن تتنفس ببطء فيما تجاهلته لتضع الأطباق في الحوض. خفق الضوء مجدداً فيما كانت تتلمس طريقها إلى السدادة وتفتح المياه.

قال لوك من خلفها: «لقد عنيت ما قلته... إن كنت في ورطة فقد أتمكن من مساعدتك».

أطبقت أصابعها على حافة الطبق قائلة: «لست في ورطة».

مدّت منشفة نظيفة على الأطباق وهي تشعر بنظرة لوك الداكنة، ثم كشّرت حين حملت الريح مزيداً من الأمطار وضربت بها النوافذ.

قالت بنبرة عادية: «بعد أن ترتدي ثيابك، ضع المناشف في آلة التجفيف... فقد نحتاجها لننام عليها. إلا إذا تدبرت هذا الأمر أيضاً، فما من أسرّة أو شراشف أو أغطية».

قال بنعومة: «لدينا لحسن الحظ النار والكثير من الحطب».

أقفل الباب بهدوء خلفه، وبعد لحظة صمت، سمعت سوريل صوتاً خفيضاً على مستوى الأرض. قالت بقساوة فيما راح باغي يدور حول كاحليها:

ـ إنك هر انتهازي وعديم الحياء. لا أعلم لما أحبتك سيتيا إلى هذا الحد. فبسببك، سأضطر إلى قضاء الليل على الأرض أمام النار.

مع لوك!

ما كان بإمكان القدر أن يلعب لعبة أكثر إيذاءً.

ردّ عقلها المنطقي قائلاً: كوني عادلة فلو لم يأتِ لوك في الوقت المناسب لخاطرت وقطعت الجسر وغرقت على الأرجح. إنك بأمان وكذلك لوك.

ستبقى وحيدة مع لوك حتى ينتهي الفيضان ويخف منسوب المياه.

كانت واثقة للغاية من أن الوقت والبعد خلّصاها من افتتان الحواس هذا. لكنها مخطئة، فمجرد التفكير في تمضية الليل مع لوك جعل نبضات قلبها تتسارع، وكفيها يتعرقان، لتعود مباشرة إلى ذاك الحب الأول المؤلم.

إلاّ أن هذا لا يعني شيئاً. إنه مجرد إدمان مصطنع على شيء يملكه لوك دون غيره. على أي حال، لم تلتقِ يوماً شخص مثله.

ارتجف الضوء مجدداً فنبّهها لملء الإبريق الكهربائي وتسخينه. ليس لديها حليب، لكن لا بد أن لوك لا يزال يشرب قهوته من دون حليب أو سكر.

وبعد دقائق، غادرت المطبخ مع باغي، حاملة في يدها فنجاناً كبيراً من القهوة. في البهو، كان لوك يضع سماعة الهاتف، وقد ارتدى قميصاً قطنياً رائعاً وسروالاً فُصّل له خصيصاً فبدا رائعاً.

يبدو أن أيام العمل الجاد والتعب قد أثمرت. وكانت سعيدة بذلك... فهو يستحق.

قال باختصار: «ظننت أن الأمر يستحق عناء المحاولة، لكن الخطوط مقطوعة. ونظراً لارتجاف الكهرباء، أظنها ستنقطع قريباً. لقد تركت هاتفي الخلوي في السيارة بكل غباء».

حبست سوريل أنفاسها وسألت: «هل من شخص تود إعلامه بمكانك؟».

٣ ـ لا عودة

ـ لا أحد.

كلمات فجّة، خالية من أيّ إحساس، كلمات علقت من دون صدى في الجو الكئيب. لكن الغريب أن ارتياحاً مخجلاً جعل عضلات سوريل المشدودة تسترخي.

هبّت رياح أخرى عصفت من ناحية البحر وارتطمت بالمنزل. ارتجفت الأنوار مجدداً، وهذه المرة انقطعت تاركة إياهما يقفان في ظلمة حالكة.

أمرها لوك بعد أن أطلق شتيمة: «ابقي حيث أنت، لا توقعي القهوة على نفسك».

فتح الباب المؤدي إلى المكتبة كي ترشدها النيران الدافئة إلى الطريق. سارت وهي تحمل الفنجان الكبير بانتباه، ثم وضعته أرضاً قبل أن تجلس متربعة قبالة النار.

بعد أن أضاف قطعتي حطب إلى النيران، انضم لوك إليها ماداً ساقيه على الأرض.

قالت وهي تقدم له الفنجان: «تفضل».

أخذ الفنجان، لكنه، وبدلاً من أن يشرب، سألها: «أين فنجانك؟».

ـ لا يمكنني أن أنام إذا ما شربت القهوة بعد العشاء. يا إلهي، استمع إلى هذا المطر! أرجو أن تكون سيارتانا في حال جيدة.

ـ لا تقلقي؛ فالمياه لا تصل إلى الطريق أبداً.

شق نور ساطع الظلمة في الخارج، لكنه اختفى بسرعة كما ظهر. قالت ساخرة: «نسيت كم تمطر بقوة هنا في الصيف».

كانت تود لو تغلق الستائر، لكن الوضع سيصبح أكثر حميمية.

ـ ستنتهي في الغد. غالباً ما تضربنا عواصف في هذا الوقت من السنة.

لعله كان يسعى لتهدئتها، إلا أن سوريل ظنت أنها لاحظت نبرة نفاد صبر خلف كلماته، فردت بلهجة لاذعة: «أعلم ذلك».

ـ هل كنت تحتاجين إلى تشجيع ومواساة؟ آسف، ليس لديّ وقت للنساء المدللات.

كان صوته بارداً وثابتاً فخدشت كلماته مشاعرها: «أنا واثقة من أنك لا تدرك كم تبدو معتداً بنفسك وصاحب أحكام مسبقة! حياتي هي شأني الخاص».

فقال وهو يرفع الفنجان إلى شفتيه:

ـ إن كنت ستعيشين قرب منزلي فقد يتبين أنّ الشأن شأني أيضاً.

ردت باختصار: «لن يحدث».

وعندما رفع لوك عينيه إلى عنقها العاري ومن ثم إلى أذنيها، اجتاحت الحرارة بشرتها، وتمنت لو أنها تركت شعرها مسدلاً على كتفيها.

أخبرته بصوت عالٍ: «أنا لا أقيم حفلات صاخبة ولا أضع الموسيقى العالية طوال الليل. قد أعبر أرضك لأتمشى على الشاطىء، وهذه هي المناسبة الوحيدة التي سترائي فيها. سأكون جارة جيدة بقدر سيتيا».

قال بشكل غير متوقع: «أنا آسف لأنني فوّت جنازتها، كنت عالقاً في الآند مع بعثة اقتصادية رسمية، ولم أسمع بوفاتها حتى عدت إلى نيوزيلندا».

عضّت سوريل على شفتها السفلى وأشاحت بوجهها لتخفي بريق الدموع التي تجمّعت في عينيها. قالت بصوت مرتجف:

ـ أنا أيضاً لم أكن موجودة، لكن... كانت لتتفهم الوضع.

وعلقت أنفاسها في حلقها عندما أطبقت أصابع قوية على أناملها، مقدمة لها مرة أخرى الدفء والدعم. رمقته بنظرة فلم تلحظ في تعبيره سوى التعاطف البارد، إلاّ أن مشاعر لا تحتمل اكتسحت جسدها مجدداً ككتلة نار.

تعطّل دماغها، تماماً كما حصل حين كانت مراهقة نحيلة، خجولة، يحرجها طولها وتشوّشها جاذبيته الجسدية الملفتة.

لا تكوني غبية!... إنه مجرد انجذاب، هذا ما قالته لنفسها بقوة، إنها مسألة إشارات لا واعية بقيت من ماضٍ بعيد.

لم تعد فتاة صبية خجولة؛ وهذا الانجذاب الجسدي كان رائعاً لكنه ليس مهماً إلى هذا الحد. ما يهم في علاقة ما هو الاحترام والحب والاهتمامات والقيم المشتركة. وما من شيء مشترك بينها وبين لوك.

رفعت نظرها إلى أعلى فوجدته يتأملها، وقد التوت زاوية فمه في ابتسامة ساخرة فيما هو يقوّم ردّ فعلها.

شعرت وكأن مياهاً جليدية سُكبت عليها، فهمست: «شكراً».

وسحبت يدها من يده.

أطلق لوك سراحها وهو يفكر في أن رد الفعل غير المرغوب فيه والوقح ذاك لا يزال موجوداً. نظر إلى العينين الخضراوين، اللتين بدتا داكنتين وغامضتين في وهج النار، ولاحظ انفراج شفتيها الناعم.

غريزته الرجولية وخبرته الواسعة في عالم النساء أنبآه بأنه لن يجد صعوبة في جعلها تتجاوب. وضبط نفسه بإرادة حديدية، فقبل أن يأخذ ما تقدّمه، يحتاج لأن يعرف لماذا تقدّمه.

قال بهدوء: «كنت أحبها كثيراً، فقد كانت مهذبة ولطيفة ومسلية دائماً، مع قلب كبير بما يكفي لتتصرف كالعمة التي يشكو لها الكل همومه. إني أفتقدها».

أرخت سوريل عضلاتها المتوترة. فتعبيره لم يتغير رغم أنه شعر من دون

شك بنبضاتها تتسارع جراء لمسته. على الأقل، أخفت العتمة احمرار وجهها.

لكنه يعلم الآن أنها لا تزال تريده.

ما ينبغي ألاّ يكتشفه أبداً هو أنها اعتادت أن تقارن الرجال به... ولم يجتز أيّ منهم هذا الاختبار.

هل سيضحك إن عرف أنه وقف حاجزاً بينها وبين أيّ رجل آخر التقته؟ على الأرجح. لكنه لن يصدق ذلك.

لذا، رفعت رأسها والتقت نظرته التي لا ترحم: «إني أفتقدها أيضاً».

فقال بفظاظة: «كلامك يفاجئني. فأنت لم تريها كثيراً منذ رحلت».

ردّت بلهجة مدافعة: «كنت أراها مرة أو اثنين في السنة على الأقل. وغالباً ما كنّا نتحدث إلى بعضنا البعض على الهاتف».

رفع حاجباً داكناً ترك في نفسها تأثيراً مدمراً: «أحقاً؟».

ـ نعم.

ورغم أن جوابها بدا كاعتذار إلا أنها لم تستطع أن تكبح الكلمات اللاذعة التالية: «لا أظن أن سينتيا كانت تخبرك كل شيء، أليس كذلك؟».

عندئذ، رد ساخراً: «لم تذكر الاتصالات الهاتفية المنتظمة بالتأكيد».

شعرت سوريل بغضب عامر:

ـ إذاً، أنت لا تصدّق أني كنت أكلمها، لأنها لم تأتِ على ذكر هذه الاتصالات الهاتفية؟ أتعلم، عليك أن تتخلص من عادة الحكم على الناس.

ـ لم أرك منذ غادرت وايناموا قاصدة نيويورك. لعلي لم أكن هنا غالباً، إنما لو زرت سينتيا بانتظام لعلمت بذلك.

لكنها كلما جاءت كانت تطلب من سينتيا ألاّ تخبر أحد، حفاظاً على الخصوصية. دوّى الرعد مجدداً وشق البرق السماء، فيما تساقط المطر بغزارة بحيث قرقعت النار وطقطقت.

قال لوك بتراخٍ: «أخبريني كيف هي حياة عارضة الأزياء المعروفة عالمياً.

هل استمتعت بذلك؟».

قالت قبل أن تستطيع منع نفسها: «ثمة لحظات جيدة، لكن هذه الحياة مملة معظم الوقت».

ثم ضحكت ضحكة صغيرة قبل أن تضيف: «وهذه المرة الأولى التي أعترف بها بذلك».

ـ إن لم تحبي تلك المهنة، فلِمَ مارستها؟

قالت بخفة: «لقد زرت أماكن مذهلة والتقيت أناساً رائعين ينشطون الذهن ويثيرون المشاعر».

ـ أتخيل أنه كان من الصعب مقاومة إغراء المال.

ـ المال جيد. لا بدّ أنك توافقني الرأي... فقد تعبت لتكسب مالك.

ابتسم لوك ابتسامة متوترة، وقال: «لا تزال عيناك تطلقان نيراناً خضراء عندما تغضبين».

ردّت: «لا تبدّل الموضوع».

فقال برقة لامتناهية: «عملت من أجل وايناموا ومن أجل الناس الذين يكسبون قوتهم منه».

عندئذ، علّقت سوريل بتراخٍ: «نبيل جداً».

نظر إليها ببطء متعمد: «إذاً، فعرض الأزياء لم يفِ بوعده بالنسبة للتألق والحياة الرغدة؟ أتذكر فتاة كانت تتوق للرحيل عن نيوزيلندا».

لأنه كان قد ارتبط بعلاقة حامية مع ماري أونيل.

جاءت ابتسامتها حادة على غرار نبرتها: «هذا أمر طبيعي. هل يمكن لفتاة في الثامنة عشرة من عمرها أن ترفض فرصة كهذه؟ وما الفرق بين امرأة أو رجل يستخدم أو تستخدم مزاياها الجسدية لتكسب عيشها، وأخرى تستخدم ذكاءها؟».

وضع لوك فنجان القهوة على الأرض:

ـ استخدام الذكاء يشير ببساطة إلى العمل الشاق والجهد، في حين . . .

قاطعته بسخرية: «صدقني، إن الحفاظ على هذه المزايا الجسدية التي تزدريها يتطلب الكثير . . . الكثير . . . من العمل الجاد والشاق».

ـ لا علاقة للازدراء بالمسألة. فأنا أتأثر بالجمال كأي شخص آخر.

ـ لكنك ما زلت تعتقد أنه ينبغي التصفيق لأصحاب العقول عندما يستخدمون ما أنعم به الله عليهم في خصائصهم الوراثية، في حين ينبغي على أصحاب الأجسام الجميلة والصحيحة ألاّ يستخدموها. لم يخطر لي يوماً أنك متزمّت يا لوك.

صمتت للحظة، وعندما لم يتفوّه بأي كلمة، أضافت بخبث طفيف:

ـ أو أنك منافق. لا تحاول إقناعي بأن وجهك الجميل . . .

وتأملت وجهه بوقاحة مدروسة ثم تابعت: «. . . وجسدك الممتاز لم يجعلا حياتك أسهل، حتى وإن اقتصر الأمر على حياتك العاطفية».

أدهشها حين ضحك بنعومة:

ـ أسلّم بوجهة نظرك. إلا أنه من العار إضاعة عقل ذكي كعقلك.

قالت وقد أغضبها ألاّ يثور: «لكن الأدمغة لا تفسد».

ـ وماذا كنت تفعلين بدماغك؟

لقد تابعت منذ سنتين دورة سريعة ومحبطة للغاية في أصول المحاسبة!

قالت باختصار: «كنت أستخدمه».

وشعرت بالسرور عندما ضربت هبة رياح أخرى المنزل، فقفزت على قدميها مضيفة: «سأسدل الستائر».

شعرت بعيني لوك عليها فيما كانت تنزل الستائر الثقيلة على النوافذ الكبيرة. لفتت نظرها رقائق تهتز بعنف وتطير في الظلام الحالك في الخارج: «آه!».

فسأل وقد هبّ واقفاً على قدميه على الفور: «ما الأمر؟».

ـ لا بأس. . . إنها مجرد آخر زهرات المغنوليا.

ارتجفت سوريل وأسدلت الستائر.

ـ كانت سينتيا تحب هذه الأزهار كثيراً.

قالت هذا عن بعد، فيما كانت تجلس وقد حرصت تمام الحرص على أن تضع عرض المدفأة فاصلاً بينها وبين الرجل الذي يسيطر على الغرفة.

كان عليها أن تترك الستائر مفتوحة. . . فالغرفة الآن أشبه بكهف، حميمة للغاية، وضوء النار يتراقص على الزوايا الفارغة والقماش السميك.

وفجأة، تملكها التعب، إلا أن نظرة سريعة إلى ساعتها أنبأتها بأن الوقت مبكر جداً حتى على التفكير في النوم. وبفضل القناع المصقول المتأتي عن السنوات التي أمضتها وهي تعطي كل مصور النظرة التي يريدها، ابتسمت للوك ابتسامة بطيئة ومضيئة: «ماذا حلّ بماري أونيل؟».

قال برقة: «اقتحمت عالم الأعمال. وماذا حلّ بذاك الممثل الشاب الذي ارتبطت به بعد عدة أشهر من رحيلك؟».

ردت بشيء من الارتباك: «لم يكن هناك عواطف. . . مجرد علاقات عامة لكل منا. كان يسعى وراء الدعاية، ورأى وكيل أعمالي. . . أن الأمر مفيد لحياتي المهنية».

لم يكن وكيل أعمالها وحده الذي رأى فائدة من الأمر، بل والدها أيضاً.

إن طبيعة علاقتهما غير الرومنسية لم تمنع الرجل من محاولة إغرائها، لكنه استسلم بطيب خاطر عندما رفضته. وقد كان من بين الأصدقاء القلائل الذين زاروها خلال مرض والدها.

التوى فم لوك: «وهل نجح ذلك؟».

ـ أفترض ذلك.

شعرت وكأنها تخوض مبارزة وأخذتها تثاؤبة على حين غرة، فحاولت إخفاءها بيدها، لكنه رآها بالطبع.

عبس وسأل: «هل وصلت اليوم من السفر؟».

ـ نعم، وصلت من فانكوفر. عادة، لا أقطع مثل هذه المسافات الطويلة، لكن فكرة قيادة السيارة إلى هنا أثارتني بعض الشيء.

انحنت إلى الأمام وأحاطت ركبتها بذراعيها، وراحت تحدق إلى ألسنة النار. فتح باغي عينيه وتمطّى، ثم بدأ يخرخر محدثاً لحناً ساراً صاحب عصف الريح في الخارج، واضطراب أفكارها وردات فعلها المربكة.

أخفت سوريل تثاؤبة أخرى، لكن لوك لاحظها.

قال باختصار وهو يقف على قدميه: «إنك مرهقة، سأحضّر الأسرّة فيما تستعدين للنوم».

رفعت سوريل إليه عينين باردتين وفم مزموم: «إذا ما نمت الآن، فسأستيقظ في ساعة مبكرة جداً، لأن ساعة جسدي لم تنتظم بعد. ليتنا نملك ورقاً للعب... كنت لأغلبك».

ضحك ثم قال بنبرة مبهمة: «لا أظن أن الأمر قد ينجح».

رفعت سوريل كتفها والتفتت لتريح ذقنها على ركبتيها مجدداً، طاوية ذراعيها بقوة على مقدّم ساقيها. تراقصت النيران أمامها... مغرية وخطرة.

وتصارع التوتر مع تعبها الموهن. من الأفضل الاستسلام للتعب... قالت:

ـ أفترض أنك لا تستطيع تأمين فرشاة أسنان؟

فرد بقسوة: «ما من فرشاة أو معجون أسنان».

تنهدت: «ثمة إيجابية للحضارة. لاحظت أنّ في المطبخ ملح، سأستعين به».

ـ ملأت حوض الاستحمام بالماء في حال انقطع التيار الكهربائي، لذا، لدينا هذا. لكن إذا أردت مياهاً ساخنة لتغسلي وجهك، فمن الأفضل أن تأخذي الإبريق من المطبخ.

فعلّقت بصوت خاضع: «نسيت ذلك».

ـ ما من طاقة، ما من مضخة، ما من ماء.

لا بد أن صمتها كان معبراً إذ ضحك ضحكة ناعمة ساخرة وأضاف: «هذه مجاهل نيوزيلندا. كان عليك أن تقصدي جزر السيشيل أو أي مكان آخر مكلف لقضاء عطلتك».

أدركت أنه لم يكن يحاول أن يؤذيها وهي تقف على قدميها وتشق طريقها خارج الغرفة، مطيعة أمره بأن تترك الباب مفتوحاً خلفها. وفيما كانت تنظف أسنانها بإصبعها، تناهت إليها حركة أمام الحمام، فنادت: «سأخرج بعد لحظات».

ـ سأحمل صندوق الملابس إلى الأسفل.

تمضمضت وقالت: «الصندوق كبير جداً... احمل قدر ما تستطيع من الملابس. سأصعد...».

ـ ابقَ حيث أنت. فالمكان مظلم جداً هنا.

وفي الظلمة الحالكة، جاهدت لتسمع وقع خطاه وهو يصعد السلالم. في ما مضى، كان التواجد في منزل واحد مع لوك طموحها الوحيد... ما تصبو إليه، وما يتوق إليه فؤادها. لكنها لم تحظَ بهذه الفرصة أبداً.

إلاّ أنها تخطّت هذه المسألة، والحمد لله.

إذاً، ما هو شعورها نحوه الآن؟

شعور حذر، هذا ما رأته وهي تعود إلى المكتبة. حذر جداً. فالسنوات قد غيرته بطرق غريبة لا تفهمها. شعرت بسلطة قاسية لم تكن ظاهرة من قبل.

بدلاً من أن تهدأ، اشتدت العاصفة. فدوى الرعد عند الأفق وأضاء البرق النوافذ المغطاة بالستائر، مع عودة لوك إلى الغرفة.

قال وهو يضع ما يحمله على الأرض: «هاكِ! اختاري ما لا يتغضن».

قالت بتشنج وهي تركع قرب كومة الملابس: «ستنجو».

وبعد لحظة قال: «سأعود سريعاً».

وضعت سوريل الملابس في كومتين على مسافة لا بأس بها من بعضهما البعض. اختارت الكومة الأصغر، حيث وجدت باغي وقد استقر عليها، فطردته قبل أن تستلقي على الأرض المفروشة بالسجاد.

ستكون ليلة طويلة. تلوّت ثم سحبت سترة، غطت بها ركبتيها وقدميها، ثم لفت عدداً من القمصان لتصنع منها وسادة مناسبة.

أغمضت عينيها، متمنية النوم بيأس ولهفة.

عندما عاد لوك إلى الغرفة، راقبته بطرف عينها وهو يغذّي النار وسمعته يستقر على كومة الملابس التي حضّرتها. قالت باختصار: «تصبح على خير».

أنّ البيت من حولهما، استمعت سوريل إلى صوت الريح والمطر وراحت تتخيل الأزهار المتطايرة نثاراً في الحديقة؛ وركّزت لتسمع صوت تنفّس لوك الهادىء، المنتظم.

لاحقاً، أخذ باغي يحوم حولها ليستقر بعد حين عند ركبتيها وانجرفت في نوم مغرٍ مريح، لتستفيق كلما أضاف لوك الحطب إلى النار. وغيّر باغي ولاءه... وحمل معه دفئه.

وعذّبتها الأحلام، ففتحت عينيها لتجد نفسها ترتجف.

سأل لوك بهدوء في الظلام: «ما الأمر؟».

ردّت هامسة: «أشعر بالبرد».

نهض ليضع مزيداً من الحطب في النار، ثم نفض يديه والتفت ينظر إليها.

ـ إن اتجاه الرياح جنوبي، إلاّ أنها على الأقل تحمل معها المطر بعيداً.

لم تكن قد استفاقت كلياً، فمضت دقيقة قبل أن تتذكر أنّ الجنوب في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية يعني القطب الجنوبي.

ـ هل عاد التيار؟

ـ ليس بعد.

كان صوته أقرب بكثير ما جعلها تفتح عينيها لترى طيفه ينحني قربها.

ـ ماذا؟

طرحت سؤالها هذا حين لامس خدها بأصابعه. كان الدفء يشعّ منه واضطرت لضبط نفسها لئلا تتبع تلك اللمسة السريعة. ابتلعت بريقها وأنهت كلامها لاهثة: «ما الأمر؟».

ـ إنك ترتجفين.

نبرته الجافة وردّه المقتضب هزّاها. استقام وتوجّه إلى كومة الملابس حيث كان يستلقي؛ فرفعت سوريل نفسها وراقبته غير مصدقة وهو يجرّ الثياب ليقربها منها. وشتم بصوت خافت عندما وثب باغي بخفة أمامه.

سألته بنبرة حادة: «ماذا تفعل؟».

ـ أدفئك.

ورمى الثياب قرب كومتها، واستلقى عليها ثم ضمها إلى قفص قاسٍ ودافىء، ما هو إلاّ ذراعيه وجسده.

انتشرت الحرارة في جسمها كله، حرارة جسده وحرارة مماثلة تفجّرت منها. صرفت سوريل بأسنانها التي كانت تهدد بالاصطكاك. أمرها: «عودي إلى النوم».

تعالى صوت نبضها في أذنيها ما اضطرها لأن تراجع كلماته في ذهنها لتفهمها. وعندما فهمتها كادت تضحك. «عودي إلى النوم!» كيف يمكن لها ذلك، وهو ملتصق بها ما جعلها تشعر به بقوة؟

واعتصر قلبها في صدرها حين تجاوبت مع حرارته وقوته العضلية. شعرت بالهواء دافئاً وحساساً، فأجبرت نفسها على التنفس ببطء وهو ما اعتادت أن تفعله مئات المرات لتستعيد هدوءها وطمأنينتها.

لكن هذه التقنية لم تنجح هذه المرة. وبدلاً من أن يهدىء هذا التمرين حواسها وعقلها، عمل على شحذها. لم تشعر يوماً بنفسها حية بهذا القدر. قال

www.elromancia.com

لها لوك: «استرخي!».

تردد صوته بشكل ما في داخلها، في قرب حميم بشكل مخيف. وتابع يقول:

ـ أنت مشدودة كوتر الكمان.

بحثت عن رد مفحم، لكن عقلها بقي غارقاً في مصيدة الأحاسيس. فبذلت قصارى جهدها لتمنع نفسها من الالتصاق به والاستسلام لرغبتها في الإحساس به.

وكما لو أنه أحس بأفكارها، فمد يده وأحاطها بذراعه. قال بنبرة باردة:

ـ توقفي عن التصرف كفتاة مراهقة يا سوريل، فأنا لا أنوي تمزيق ثيابك والاستفادة من هذا الوضع. اخلدي إلى النوم وحسب.

اكتسحها خزي مرّ، لِمَ آلمها كلامه إلى هذا الحد؟

استلقت متصلبة بين يديه حتى جرها تعب لا يقاوم إلى النوم. وتبخّرت الصور المزعجة من رأسها ببطء، حتى استغرقت في نوم عميق.

لكنها حلمت بالليلة التي عانقها لوك فيها. حتى في حلمها، تجاوبت مع ذاك العناق... العميق، اللذيذ، الرائع... لكنه لم يبعدها عنه هذه المرة، ولم يقل لها بصوت أجش ورباطة جأش: لا!

ولم يقدم لها اعتذاراً بارداً، متحفظاً.

هذه المرة، تحول العناق الواحد إلى الاثنين ومن ثم ثلاثة، وما لبثت أن غرقت في سحر فتاك. هذه المرة، لن يكون هناك عودة إلى الوراء، كما خطر لها بابتهاج.

٤ ـ افتتان طالبة

لفظ لوك اسمها: «سوريل».

كلمة واحدة، إلا أنها كانت كافية لجعلها تستيقظ على الفور.

فتحت عينيها لترى بريق عينيه خلف جفنيه المطبقين جزئياً. ورغم هسيس النار وفرقعة الحطب، سمعت نفسها المحبوس في حلقها تسانده نبضات قلبها المتسارعة.

هذا ليس بحلم! كانا مستلقين على كومتي ملابس أمام النار في بارينجا، وكانت ملتصقة به وقد طوّقت جسدها المتوتر، حرارته وقوته.

كان النوم قد أصابها بدوار وأسكرتها الأحاسيس، فأذعنت للإغراء ورفعت ذراعيها إليه. قال شيئاً ما، لكن الكلمة ضاعت في دوامة الأحاسيس، ومن ثم عانقها مجدداً، عناقاً قوياً عطّل تفكيرها كلياً. وتسارعت نبضات قلبها بشكل عجزت عن تحمّله، فتنهدت لشدة سيطرته عليها.

شعور طائش بالقوة والسلطة تملّكها، فهذه المرة الأولى التي ترى فيها لوك وقد فقد السيطرة على نفسه. أمسك بها كرجل فقد قدرته على الاحتمال، وكأنه يكره نفسه لأنه يريدها.

تراقصت ألسنة النار في المدفأة، مضيئة وجه لوك، وملامحه القاسية التي بالكاد رقّت من الانفعالات.

همست سوريل اسمه وأحاطت وجهه بيدها، فداعبت أصابعها لحيته النابتة ووجنته وذقنه.

www.elromancia.com

تجمد وقد تعطلت كل عضلة في جسمه القوي في رفض لما يجري. وشعرت بأنفاسه تحتبس في صدره.

ـ لا.

همس بهذه الكلمة وابتعد عنها ثم هبّ واقفاً في حركة أوصلته إلى المدفأة. وقف مديراً ظهره لها، والنار تتراقص حول خطوط جسده القوي الداكنة. وأظهر الضوء قبضة مشدودة إلى جانبه والأخرى على رف الموقد.

الحزي خدش روحها. التفّت على نفسها كحيوان جريح، وقد أدركت أن الأمر حصل مجدداً... لقد استسلمت من دون تفكير بعد أن اكتسح عناقه أفكارها وعطل دماغها. بعدئذ، رمى لها استسلامها في وجهها.

تماماً كما فعل منذ عشر سنوات خلت.

استقامت في جلستها وضمت ركبتيها بذراعيها، مريحة جبهتها عليهما في محاولة لاستعادة سلامة عقلها. هذه المرة، هي أكبر سناً وأكثر قدرة على التعامل مع الرفض. حسناً، من الأفضل أن تشفى من ذلك، على أيّ حال.

قالت بصوت خفيض أجش: «أنت محق. هذا... ليس حكيماً».

ـ لكن لا مفر منه.

وصمت. وعندما لم تتكلم أو ترفع رأسها عن ركبتيها، أضاف بصوت بارد أطفأ حرارة جوعها: «الآن بت أعلم أن مصوريك لا يصححون صورك لتحاكي الكمال. وما زلت تعانقين كحورية».

همست: «وأنت كفاتح. كنت نائمة، تباً لك».

قال ببرودة: «أحقاً؟ أنا لا أسيطر على نفسي كلياً عندما أستيقظ وبين ذراعيّ امرأة».

لا! السنوات التي مرت لم تجعل التعامل مع رفضه أسهل. رفعت رأسها وسألت بصوت أقرب إلى الفحيح: «هل تلمّح إلى أنني من بدأ بالعناق؟»

لم يجب على الفور. وبدلاً من ذلك، انحنى والتقط قطعتي حطب ثم وضعهما

في النار بما بدا لسوريل دقة مبالغ فيها.

قال أخيراً: «لا أعلم من بدأ العناق، وهذا غير مهم. ما يهم هو أنه لن يوصل إلى أي مكان. فأنا أعرف النساء مثيلاتك جيداً».

ـ من مثيلاتي؟

وأصبح صوتها أجش وهي تردف: «إذاً، أصبحت أنا وزوجة أبيك متشابهتين؟ قل لي، هل تعتبر ذوات الشعر الأحمر كلهن طمّاعات وعديمات الأخلاق وقاسيات؟ أم أن علينا أن نتمتع بساقين طويلتين أيضاً، لنحصل على المعاملة الكاملة؟ ألم تدرك أنها تصبغ شعرها؟».

قال بإيجاز: «بالطبع، أعلم ذلك! الأمر لا علاقة له بالمظهر الخارجي».

ـ أنت تكره كافة النساء، إذاً؟

وأضافت بتهور بعد أن أعماها الغضب والألم: «أتعلم، يمكنك أن تخضع للعلاج لتتخلّص من هذه العلة».

ـ أنا لا أكره النساء.

لقد لامست وتراً حساساً هنا... فقد تكلم بغضب عارم حذّرها من المضي قدماً.

قالت بتشنج وهي تقف: «كدت تخدعني. سأعود بعد قليل».

وتوجهت إلى الحمام والألم يتآكلها.

كم من امرأة أقام علاقة معها ليكتسب هذه الثقة بالنفس؟

أغلقت باب الحمام خلفها، واستندت إليه وهي ترتجف في الظلمة الحالكة وأقسمت ألاّ تعرّض نفسها لهذا الموقف مجدداً.

على الأقل، كان لديه اللياقة الكافية ليتوقف.

لكن، لمَ وضعها في الخانة نفسها كزوجة أبيه؟

فكرة لقاء عينيه الساخرتين مزّقت رباطة جأشها إرباً، لكنها صلّبت كتفيها. ومنعتها كبرياؤها من تمضية بقية الليل بجين في الحمام.

استعانت بتقنيات تعلّمتها منذ سنوات، فراحت تتنفس بشكل بطيء وعميق، لتغرق ألمها المربك في عملية منتظمة، مريحة.

عندما عادت، رمقها بنظرة قبل أن يعود إلى تأمل النيران عابساً. بدا لها أنه لم يتحرك من مكانه.

بدأت سوريل بنقل كومة الملابس الصغيرة التي اتخذتها فراشاً لها إلى الناحية الأخرى من المدفأة.

قال: «سأذهب لأرى ما إذا كان منسوب المياه قد انخفض بما يكفي لنعبر».

وعندما رفعت نظرها إليها، أضاف بجفاء:

ـ ابقي هنا. ما من داعي لأن ترافقيني، فالطقس بارد جداً في الخارج.

ارتمت سوريل على فراشها وراقبته وهو يخرج من الغرفة وقد تبعه باغي بنشاط. عاد الاثنان بعد دقائق، حاملين معهما هبة ريح وزخة مطر وبعض الخضار.

قال لوك باختصار: «ليس بعد. حاولي أن تنامي قليلاً».

عضت على شفتها، لكنها كانت تعلم ما عليها أن تفعله. فقالت بهدوء: «أنا آسفة».

ـ انسي الأمر.

كان صوته قاسياً. إنما وفيما كانت مستلقية مجدداً على جانبها، تحاول بعناد أن تجد إلى النوم سبيلاً، سألها ببساطة: «من كنت تعانقين يا سوريل؟».

ادّعت أنها لم تسمعه. لم يضف أيّ كلمة أخرى، وبعد حين أدركت أنه استسلم للنوم.

بدا لها هذا الأمر وكأنه إهانة كبرى. ها هي عاجزة عن طرد الذكريات من ذهنها... لمسة أصابعه، ودفء أنفاسه، وحرارة جسده وقوته... أما هو فبالكاد فكّر في ما حصل بحيث استطاع أن ينام!

وذكّرت نفسها بأنه كان عليها أن تعرف ذلك. فقد اكتشفت ذلك منذ عشر

سنوات. عانقك ذات ليلة أيتها الغبية، فتركك مذهولة، ثم اعتذر منك وقال إن هذا العناق لا يعني شيئاً سوى أنك فتاة جميلة جداً وأنه مولع بك.

وفي الليلة التالية، وفي حفلة الشواء التي أقيمت على الشاطئ، التقى ماري اونيل.

ولشدة ما كانت تشعر بوجوده، وعلى أمل أن يكون قد تصرّف بشهامة لأنها لا تزال فتية، رأت سوريل البريق في عينيّ لوك عندما كرر اسم الضيفة بصوت عميق، مثير، صوت يحمل نبرة لم تسمعها من قبل.

رمقته ماري، وهي شقراء، قصيرة القامة، ذات قوام ممتلئ، وعينين سوداوين كبيرتين، بنظرات أرادتها مغرية، فتاكة. فابتسم لوك لها، وهو بالكاد يخفي التقدير الذي ظهر في عينيه الرماديتين.

واعترفت سوريل لنفسها بأنّ العناق الذي غذّى أحلامها وآمالها الليلة الماضية، لم يعنِ له في الواقع شيئاً؛ لقد كتب على أحلامها وآمالها أن تذوي.

حاولت يائسة ألاّ تدع أحداً يلاحظ بؤسها، فابتسمت خلال السهرة، فيما راحت تراقب بانتباه انصراف الاثنين إلى شرنقة الانجذاب المتبادل.

وبعد يومين، صادفتها ماري في الشارع الرئيسي للمدينة الصغيرة القريبة، فسألتها بوقاحة: «هل من علاقة بينك وبين لوك هاردكاسل؟».

ردّت سوريل، رافعة رأسها: «لا».

أومأت ماري برأسها إيماءة قصيرة: «ما ظننت أنّ ثمة علاقة بينكما، لكنه بدا وكأنه يخاف عليك كثيراً ليلة الحفلة على الشاطئ، فتساءلت عما إذا كانت المسألة تتعدّى مسألة الأخ الأكبر».

ثم هزّت كتفيها وشرحت: «أنا لا أريد التدخّل في خصوصيات غيري. لكني أردت أن أتأكد وحسب».

أخرجت سوريل شجاعة مكّنتها من أن تقول: «لست تتدخلين في خصوصيات أحد».

وأضافت بشيء من الخبث: «لكن، حتى لو أردت فإن لوك هو من يتخذ القرار».

ضحكت ماري، ضحكة مثيرة تعكس خبرة واسعة: «أنت بلا أم، أليس كذلك؟».

- نعم.

- إذن، اعتبريني أختاً أكبر سناً للحظة وتذكّري هذا. المرأة هي التي تختار دوماً.

ليس في حالة لوك، هذا ما خطر لسوريل.

وفي غضون أسبوع، أصبحا ثنائياً. فأحسّت سوريل بجرح عميق طال روحها واستسلمت لاقتراح والدها أن تشترك في مباراة لعرض الأزياء. وعندما كسبت المباراة، وقّعت عقداً مع وكالة في نيويورك وتركت لوك وبارينجا خلفها.

استيقظت سوريل على أشعة شمس خفيفة تتسلل عبر الستائر المسدلة وعلى صوت النهر المتدفق نحو مصبّه. نظرة إلى ساعتها أظهرت أنّ ساعتين مرّتا على شروق الشمس.

تثاءبت وتمطت فأحسّت بألم حارق في عضلاتها ما ذكّرها بأنها أمضت الليل على الأرض. لقد خمدت النيران وتحوّلت إلى رماد، أما باغي، فرحل مع لوك.

آه، يا إلهي... لوك! نهضت وفتحت الستائر، ثم وقفت وسط نور الشمس الذهبي تقيّم المجزرة التي وقعت في الحديقة.

في السنة القادمة، ستزهر المغنوليا من جديد.

لذا، تعلّمي هذا الدرس! هذا ما أمرت نفسها به وهي تبتعد.

في المطبخ، وجدت حقائبها على الأرض وملاحظة على الطاولة.

- تراجعت المياه لكن الكهرباء لا تزال معطلة لأنّ الطرقات مقطوعة. تعالي إلى المنزل لتستحمي وتتناولي الفطور. باغي معي.

وبعد دقائق قليلة من الغضب، قررت سوريل أن تقبل ما كان أمراً أكثر منه دعوة، لأنها في حاجة ماسة إلى الاستحمام. وبعد أن استبدلت ثيابها بكنزة من الصوف بلون الكراميل وسروالاً مناسباً، انتعلت حذاءً طويلاً من الجلد، وذكّرت نفسها بضرورة شراء حذاء مناسب للمنطقة. جمعت أدوات الاستحمام وبعض الملابس الداخلية ووضعتها في حقيبة ثم خرجت في الصباح المنعش.

إلاّ أنها، وقبل أن تغادر، حاولت إضاءة الكهرباء. كشّرت عندما ضاعت محاولتها سدى. وتذكرت كلمات لوك الساخرة: ما من طاقة، ما من ماء، ما من حمام.

بالرغم من أنّ النهر لم يعد ذاك الوحش القاتل الذي رأته الليلة الماضية، إلاّ أنه لا يزال يهدر، حاملاً معه تراباً أحمر يميل إلى اللون البني. قطعت سوريل طريقها عبر طبقة الطين التي تغطّي الجسر، ومدّت ساقيها لكي تتمكن من السير في آثار الخطى التي خلّفها لوك.

سارت بخطى واسعة وهي تتنفس بعمق، مالئة رئتيها بالهواء المثقل برائحة النباتات التي غسلها المطر، وبرائحة النهر والبحر. وراحت تقنع نفسها بأنّ عليها ألاّ تشعر بالاحراج من رؤيته مجدداً.

حسناً، تبيّن أنّ العودة إلى بارينجا تحمل معها تحديات أكثر مما توقّعت، إلاّ أنها تستطيع التعامل مع كره لوك الواضح لها، علماً أنها تودّ لو تعرف سبب هذا الكره. هل يعتقد حقاً أنها مثل زوجة أبيه؟

لم تحب شيري، لكن لم يحبها أحد حينذاك، ولدى لوك سبب وجيه ليكرهها.

إنما أن يحكم على سوريل على أساس لون الشعر المشترك بينهما... لا، هذا سخيف. إنه إنسان منطقي للغاية، لذا لا يمكن أن يفعل ذلك.

في حال ظنّ أنها مصممة على إقامة علاقة عابرة، فقد أظهرت جلياً أنها لم

تعد إلى بارينجا بنيّة الايقاع به! وارتسمت ابتسامة سريعة على شفتيها. ما جرى الليلة الماضية كان غلطة، لكن كليهما كان نائماً...

رغم مرور كل هذه السنوات، ما زالت تشعر بالانجذاب نحوه. أصبحت ابتسامتها قاسية. لعلها في مأمن منه، إنما هل هي في مأمن من ذاتها؟

قالت بجفاء: «أنت آمنة تماماً. كل ما عليك أن تتذكريه هو النظرة التي ارتسمت على وجهه عندما أدرك من يعانق. إنها نظرة تقضي على أيّ مشاعر أو هوى».

لفتت انتباهها حركة على جانب الطريق. كان باغي يتجه نحوها بثقة رزينة، وقد رفع ذيله وبدا وبره ناعماً.

رحبّت به وهي تنحني لتداعبه خلف أذنيه الرائعتين:

- تبدو أكثر ابتهاجاً وارتياحاً هذا الصباح!

تحمّل مداعباتها لثوانٍ معدودة قبل أن يبتعد ليراقب حمامة هزيلة غطّت على أحد أغصان شجرة كاميليا ضخمة وقديمة. حذّرته سوريل:

- إياك أن تفكر في ذلك حتى، فالطيور ليست على لائحة طعامك.

رافقها بطيب خاطر، حتى أنه توقّف عندما وقفت تنظر من بين الأشجار القديمة إلى النهر، الهادئ والبني والقوي، في طريقه إلى مصبه في البحر.

ارتفعت معنويات سوريل وابتسمت عندما رأت طيراً يتودد إلى وليفه بين الأزهار المتعرشة البرتقالية اللون.

وبعد ثوانٍ، التقط سمعها وقع حوافر خافتاً. انتفض قلبها عندما ظهر لوك عند المنعطف وقد أنارته ومضات أشعة الشمس المتسللة من بين أوراق الأشجار.

كان يرتدي كنزة سوداء اللون بياقة عالية وسروالاً داكناً، رطباً حتى الركبتين. بدا مسترخياً، إنما حذراً، أشبه بمحارب خرج لتوه من أسطورة.

قالت سوريل، وقد جفّ فمها فجأة عندما التفتت إلى الوجه البرونزي،

البرونزي، القاسي: «صباح الخير».

أحنت الفرس رأسها لتشتم باغي، ثم رفعته لتحرك ذيلها في حركة سريعة على جانبيها.

- صباح الخير.

تأملها لوك في تقييم كسول ثم أضاف:

- عندما رحلت، بدا لي وكأنك مستعدة لأن تنامي ثماني ساعات أخرى.

زحف الاحمرار إلى بشرتها، لكنها استطاعت أن تبتسم:

- في أي ساعة استيقظت؟

انحنى وقاد الفرس نحوها، ثم توقف لحظة ليداعب باغي. وعندما استقام، قال: «مع طلوع الفجر. ثمة سواد تحت عينيك. يبدو أن النوم على الأرض لا يناسبك. سأتصل بالمجلس البلدي وأطلب منهم فتح الطريق في أسرع وقت ممكن. ويمكن لشركة الكهرباء أن تقوم بالتصليحات اللازمة بعد فتح الطريق. بعدئذٍ، ستتمكنين من إحضار بعض المفروشات.»

قالت بلهجة معسولة: «بهذه البساطة؟ يكفي أن تشير بإصبعك ليهبّ المجلس البلدي لتنفيذ الأوامر؟».

رفع كتفيه العريضتين وارتسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة:

- إن لم يكن هناك أشغال أهم. لن يضير إن علموا أن الاتصالات والكهرباء مقطوعة عنا.

إن لوك رجل يتحمل المسؤولية فضلاً عن أنه يتوقّع من الآخرين إطاعة أوامره. لكن لا علاقة له بحياتها. لفظت كل كلمة بوضوح وتصميم حين قالت:

- سأستعير هاتفك الخلوي، إن كنت لا تمانع، وأتصل بهم بنفسي.

سألها لوك ببساطة: «لماذا؟».

ردّت بفظاظة أكبر مما كانت تنوي:

ـ لأنها مشكلتي. أراهن على أنك تملك مولداً للحالات الطارئة كهذه.

ـ بالطبع، فمولد الكهرباء ضروري.

زمّت سوريل فمها، ورمقته بنظرة مباشرة وجامدة ثم قالت بهدوء:

ـ سأعالج الأمر، فقد أصبحت راشدة ولا أحتاج إلى أخٍ أكبر أو إلى معلم.

احترقت شعلة زرقاء في عينيه، وردّ بصرامة:

ـ لا أشعر أني أيّ منهما. لعلك أمضيت فترة طويلة بعيداً عن نيوزيلندا، فنسيت أنّ الجيران يساعدون بعضهم البعض كلما استطاعوا ذلك.

رمقته بنظرة صريحة: «تبدو متعصباً بعض الشيء يا لوك. فالجيران الجيدون موجودون في كافة أنحاء العالم».

وعندما أحنت الفرس رأسها وصهلت بنعومة، رفع لوك يداً سمراء نحيلة ليداعب أنفها.

ـ من الأفضل أن ننطلق؛ فالفرس تطالب بفطورها ولا بد أنك ترغبين في الاستحمام.

وبسهولة وخفة، امتطى صهوة فرسه فيما تحركت عضلاته بنعومة تحت كنزته. راقبها من موقع السيطرة هذا، ثم سأل: «أتريدين أن تصعدي خلفي؟».

هزّت رأسها وأجابت ببرود: «أنا وباغي سنسير، شكراً لك».

هكذا، وقعت في حب لوك.. عندما عرض عليها أن يوصلها على الطريق الحار والمغبر بعد أيام من عودتها من دورة تعلّم عرض الأزياء. حتى ذاك الحين، كان شعورها مجرد افتتان تلميذة مدرسة، افتتان بريء. لكن في ذاك اليوم الحار، الباعث على التراخي، عرفت الحب الأول عبر لذة الجلوس خلفه وذراعاها تلتفان حول خصره. يومها، راحت تستمع حالمة إلى دقات قلبه المنتظمة، فيما رائحة الرجل والجواد والطريق المغبر والأزهار البرية المذهلة تداعب أنفها.

كانت واثقة من أنّ لوك تذكر ذاك اليوم أيضاً. لم يشح بنظره عنها إلاّ حين تململت الفرس تحته. وراقبت سوريل ساقيه القويتين وهما تسيطران على الحيوان الضخم.

قال بصوت أصبح أجش فجأة: «أراك في المنزل».

رفع يده في تحية أشبه بالتحية الساخرة ثم حثّ الفرس على التقدّم وتركها.

آخر مرة سارت فيها في هذا الطريق، كان يعيش في مقطورة قديمة في حقل صغير معشوشب يقع فوق النهر. كان بإمكانه أن يطرد إحدى العائلات من أحد المنازل الريفية الأربعة التابعة للمزرعة، إلا أن ضمير لوك لا يسمح له بذلك.

لم يمضِ وقت طويل حتى أوقف واينامو على قدميه من جديد. وعلى امتداد السنوات، اعتادت سينتيا أن تنقل إليها بإخلاص أخبار عمله الجاد، ونجاحاته وسمعته المتعاظمة كرجل أعمال متعلق بشدة بالأرض وصاحب أفكار إبداعية وجديدة حول طريقة استخدامها.

بالنسبة إلى لوك، الذي تحركه طاقة ديناميكية وحب جارف للأرض، كانت واينامو المكان الوحيد الذي ينبغي بناؤه. أما المنزل الجديد فهو الإثبات لقدرته، والتتويج لعمله، وقد حلّ محل البيت الذي اضطر لبيعه. ومحا آخر بقايا سوء إدارة زوجة أبيه.

خرجت سوريل الغارقة في أفكارها من النفق الذي شكلته الأشجار، إلى مساحة شاسعة مسيجة... وتوقّفت.

لقد التقطت لها صور، أثناء عملها في عرض الأزياء، في بيوت فخمة عديدة في كافة أنحاء العالم؛ وبحكم شهرتها، ارتادت حفلات وأمضت أياماً في قصور رائعة. لكن شيئاً ما في هذا المنزل، الواقع بين حدائق بدت وكأنها وُجدت هنا منذ الأزل، أسرها.

وهذا لا يعني أنه قصر. بدا المنزل العصري، الواسع والمؤلف من طابقين،

كجوهرة وسط الحديقة الرئيسية والنهر وتلال وايناموالخصبة. أدارت سوريل رأسها لتلاحظ مرآباً واسعاً إلى يمين المنزل، تعلوه شقة سكنية.

أطلقت تنهيدة تقدير طويلة وناعمة... وتحوّلت تنهيدتها إلى دفق من الأدرينالين مع ظهور لوك عند زاوية المرآب.

عمدت سوريل إلى إرخاء عضلاتها المشدودة، ورسمت على وجهها قناعاً لتخفي خليط الحذر والسرور المندفع الذي اعتمل في داخلها. إلاّ أن عينيها تأملتاه ببطء والشمس تضفي عليه هالة مضيئة.

أشارت إلى المنزل قائلة: «لوك، هذا رائع ومناسب للغاية لوايناموا».

ـ شكراً لك.

قال هذا بهدوء، وقد حمل صوته نبرة أضفت على الكلمات حدة جعلتها ترمقه بنظرة سريعة. وبعد صمت قصير، أضاف: «قام المهندس بعمل ممتاز. قررت بناءه عندما قالت لي سيتيا إنها لن تعيد بيع بارينجا لي».

وتصادمت العينان الرماديتان الحديديتان، اللامعتان وغير المقروئتين مع عينيها.

أدارت سوريل رأسها، مدعية أنها تتأمل واجهة المنزل، بخطوطها المتقنة والمرحبة:

ـ لا بدّ أن ذلك أزعجها.

ـ قليلاً، إنما أنا لست عاطفياً.

قال هذا بنعومة، وهو يراقبها بإمعان جعل بدنها يقشعر.

أشاحت سوريل بنظرها: «أعلم أن النباتات تنمو بسرعة في نورثلاند، لكن هذه النباتات تبدو كبيرة. لا بد أنها أقدم من المنزل؟».

بدأ لوك يسير نحو المرآب: «قمت بزراعة الحدائق بعد حوالى عام من رحيلك».

شيء ما في لهجته جعل أجراس الإنذار تقرع في عقلها، لكنها لم تتمكن أبداً

من اكتشاف السبب فيما كانت تتبعه.

وأطلق طير على أحد الأغصان لحناً سعيداً. أبطأ لوك السير حتى لحقت به سوريل ثم قال: «أخذت المأكولات المعرّضة للتلف من سيارتك ووضعتها في الثلاجة. إنها لا تزال باردة لذا، لا بد أنها ما زالت صحية».

ـ يبدو أني أمضي وقتي في توجيه الشكر لك.

شذا الأزهار والنباتات الخضراء وعطر لوك أثار حواسها فيما كانت ترافقه إلى المرآب.

لقد ركن سيارتها في الداخل، وقد بدت غريبة وفي غير مكانها بين سيارة ب أم ف ملفتة وسيارة لاندروفر.

دعاها وهو يفتح الباب الموصل إلى المنزل: «ادخلي».

٥ ـ ليتني أرحل

أشار لوك إلى الاتجاه وقد التوى فمه بابتسامة لرؤية بريق الطمع في عيني باغي الذي اتجه نحو صحن من الطعام الخاص به.

ـ سنتركه يستمتع بفطوره... فهذه هي الطريقة الوحيدة لنستمتع بطعامنا بسلام.

قالت سوريل: «شكراً جزيلاً على اهتمامك به».

ـ ما من مشكلة... فهو قط يتكل على نفسه باستثناء ميله إلى الادعاء.

قال لوك هذا بطريقة جافة وفتح باباً آخر يؤدي إلى داخل المنزل.

تجاوزت سوريل القط والرجل معاً وسارت في ممر قادها إلى مقدمة المنزل. كان البهو الأمامي رائعاً، تتوسطه سلالم ملفتة تقود إلى الطابق العلوي.

قادها لوك إلى الأعلى وفتح باباً ثم قال باقتضاب: «غرفة النوم الإضافية».

وأضاف بابتسامة سريعة، سرّعت نبضات قلبها المجنون: «فيها حمامها الخاص».

ـ إني أتوق إلى ذلك.

قالت سوريل هذا بامتنان حقيقي، وهي تتأمل ألوان الغرفة التي تميّزت بلون الفانيلا مع ظلال خفيفة بلون الشوكولا وشيء من اللون الأحمر الأرجواني القاتم.

ـ أشعر بأني قذرة واستحق حماماً ساخناً.

فقال بلهجة هادئة: «تبدين لي بحال جيدة ومسيطرة تماماً على الوضع.

المناشف في الحمام... خلف ذاك الباب. سيكون الفطور جاهزاً بعد نصف ساعة».

ـ شكراً لك. هذا لطف كبير منك... لا سيّما وأن غبائي كان السبب في تمضيتك ليلة غير مريحة.

فقال باختصار: «إنه حسن ضيافة أهل الريف. ما من داعي للشكر».

لم يقل بالحرف الواحد إن الأمر ليس شخصياً، وإنه لا يخصّها دون سواها بهذه المعاملة، لكنه حرص على أن يجعلها تفهم ذلك. ولم يكن مضطراً لذلك... فسوريل تفهم الرفض عندما تواجهه.

ما إن أغلق الباب خلفه حتى أطلقت سوريل نفساً طويلاً ولجأت إلى الحمام.

وبعد خمس عشرة دقيقة، خرجت والاحمرار يعلو خديها فيما بدا شعرها الأسود حريرياً جافاً.

أحست بأنها تتمتع بحيوية ونشاط فائقين. خطر لها أن السبب في ذلك هو عودتها إلى نيوزيلندا، لكنها أدركت أنها مهما بلغ حبها لوطنها إلا أن هذا الحب ليس السبب الكامن خلف النيران التي تسري في دمائها.

تطلب الأمر عشر دقائق لكي ترسم وجهاً يبدو... حسناً، لقد سعت إلى السكون والصفاء، لكن المرآة عكست مسحة من اللون على وجنتيها وتمرداً في عينيها لا يمكن لأيّ زينة أن تخفيهما.

كان لوك يذرع البهو ذهاباً وإياباً عندما خرجت من غرفة النوم. بدا أنه استحم بدوره وبدّل ملابسه؛ جسد قوي ونحيل في قميص وسروال متقن الخياطة. نظر إليها نظرة مقلقة وسأل: «جائعة؟».

ـ نعم.

وتابعت: «آمل ألا تمانع مدبرة منزلك وجود طعامي في الثلاجة».

ـ ولمَ تفعل؟

شرحت باستخفاف: «معظم النساء يشعرن بالتملّك حيال أمكنة عملهن».

قال: «الثلاجة لي، وكذلك الطعام الذي في داخلها... باستثناء طعامك طبعاً. بين ليست غبية بحيث تعترض. ماذا تودّين أن تأكلي؟».

- بيض مخفوق، سأقوم بتحضير الفطور بنفسي. فأنا أجيد تحضير البيض.

وبعد ربع ساعة، قال لوك بنبرة تقدير كسولة:

- كلمة لذيذ جداً لا تفي هذا الطبق حقه، أين تعلمت الطهو هكذا؟

ابتسمت سوريل وقد سرّها هذا الإطراء: «إنها تقنية سيتيا الخاصة. عندما كنت في الثانية عشرة من عمري، هالها أن تدرك أني لا أجيد سوى تحميص الخبز وتسخين الطعام المعلب، فقررت أن تتسلم مهمة تعليمي».

- هل تتذكرين أمك؟

أذهلها سؤاله فنظرت إليه عبر الطاولة. نور الشمس المتدفق إلى غرفة الطعام الجميلة عبر نوافذ عريضة، أضفى لمعاناً على بشرته السمراء، وأبرز البنية الجريئة التي أعطت وجهه قوته وسلطته.

كان يراقبها من خلف أهداب تحلم معظم النساء بها، أهداب سوداء وطويلة وكثيفة لم تضفِ ليناً على وجهه.

قالت وهي تسكب فنجاناً من القهوة: «بالكاد».

هذه المهمة البسيطة شغلت يديها اللتين تاقتا إلى رسم خطوط فمه. وتابعت تقول: «كنت في الرابعة عندما توفيت، لكني أذكرها وهي تغني لي وتضحك مع والدي. وأتذكر كم بدا المنزل فارغاً من بعدها. لقد بذل والدي قصارى جهده، إنما لم تعد الأمور على حالها. أخبرني ذات مرة أنه لم يلتقِ امرأة أخرى يمكنه أن يحبها كما أحب أمي».

قال لوك بنبرة، لا تعكس أي شعور: «قالت سيتيا إنه لم يتمكن من الاستقرار من بعدها».

- كان كثير التململ، ينتقل دوماً من مكان إلى آخر.

قالت هذا بلهجة مدافعة وأردفت: «أظن أن الأمور أصبحت أسوأ بعد وفاة والدتي».

- إذاً فقد عشت حياة رحالة.

- حسناً... نعم. لكنه بذل قصارى جهده معي. لقد اعتنى بي وكنت أعلم أنه يحبني. هل تتذكر والدتك؟

- جيداً.

هبّ لوك واقفاً وقطع الغرفة ليفتح النوافذ العريضة المطلة على الشرفة التي تعلو الحديقة. تأمل ملكيته قبل أن يقول بصدق: «كنت في الثامنة من عمري حين هربت من واينامو».

عضّت سوريل على شفتها وهمست: «لم أكن أعلم».

رمقها بنظرة سريعة غير مقروءة: «إنها تركت والدي؟ أستغرب أن الشائعات المحلية لم تعطك تفاصيل. تزوجت رجلاً استرالياً ثرياً لا يتوقع منها أن تعيش في المجاهل. ما زالت تعيش معه، على حدّ علمي».

سألته وهي تفكر في ما عناه: «على حد علمك؟».

- لم أرها سوى مرات قليلة منذ تركت واينامو.

حدّقت سوريل إليه مصدومة: «هل رفض والدك أن تسافر لتراها؟».

هز لوك كتفيه وقال ببرود: «لم تشأ أن تراني».

ما هو نوع المرأة التي تترك ابنها وترحل؟ قالت مجدداً: «لم أكن أعلم».

- لم يشكل الأمر أي فارق؛ كنت بربرياً ومتوحشاً، أرافق أبي كلما سنحت لي الفرصة.

وتوقّف لوك فجأة ليلتقط كرة، ثم قذفها بسرعة ودقة على صقر ينقضّ على فريسة لا حول لها ولا قوة... بطة ترعى صغارها بقلق على ضفة النهر.

حطت الكرة حيث أرادها أن تحطّ، قرب البطة، ثم ارتدت في وثبة مفاجئة،

فأخافت الصقر الذي حلّق في الجو مجدداً وطار فوق النهر متجهاً إلى الضفة المقابلة.

ـ أحسنت.

صفّقت سوريل، آملة ألاّ يلاحظ النبرة الزائفة في صوتها. إن قوة ردّ فعله السريع جعلت الدم يتدفق في شرايينها، وأطلقت رداً حاراً في داخلها، رداً بدائياً وغير متوقع بحيث جعلها ترتعش.

لقد أصبحت خبيرة في أجساد الرجال بعد أن عملت مع عارضي أزياء يمضون ساعات وساعات يشكلونها حتى يصلوا إلى حدّ الكمال الجسدي. إن قدم لوك لم تطأ يوماً أي نادي رياضي على الأرجح. لكن العمل الشاق تحت الشمس والمطر لسنوات صقل جسده، الذي يتميز بكتفين عريضتين، وورکين ضيقين وساقين طويلتين.

وهي تريده بشدة... هذا الرجل، هذا الرجل وحده.

لوك دائماً وأبداً.

لقد التقت خلال السنوات التي مرّت رجالاً لطفاء، ورجالاً مثيرين، وآخرين أغنياء، وساحرين، حتى أنها التقت بعض الرجال الملفتين الجذابين؛ لكن أياً منهم لم يثر اهتمامها. وظنت أنها أحبت بعضاً منهم، إلا أن أملها كان يخيب في كل مرة.

إلاّ أن لوك... وهو رجل لا يعجبها كثيراً حتى... قادر على أن يفقدها رباطة جأشها بنظرة وأن يذيب عظامها كلما اقترب منها.

حدّقت إليه مذهولة وهو يستدير ليعود إلى الغرفة. أضفت الشمس مظهراً جذاباً على بشرته المسمرّة وشعره الأسود وأدفأت عينيه الرماديتين بريقهما الأزرق النادر.

خرجت أنفاسها سريعة من بين شفتيها المرتجفتين، فرفعت فنجان القهوة وارتشفت جرعة منه. هل هي سطحية للغاية بحيث أن الانجذاب الجسدي

يهمها أكثر من الأمور الأخرى التي تقدّرها في الرجل، أي الحب والاحترام واللطف والذكاء...؟

لا. إنما ما الذي يجعل لوك مختلفاً عن أي رجل آخر؟

قال وهو يجلس مجدداً: «علي أن أعترف بإعجابي بالصقر... إن لم يكن لسبب ما، فلإصراره ومثابرته. وقد سهّل البط مهمته... فالصغار مفطورة على السير خلف أمها في خط واحد. كان قادراً على اصطياد الصغار كلهم لو لم يتدخل أحد».

حاولت جاهدة أن تجيبه بسخرية خفيفة، وشعرت بالارتياح حين خرج صوتها ثابتاً بعض الشيء من دون ارتعاش:

ـ من الرائع أن أراك تظهر الناحية الراعية والحاضنة من شخصيتك.

رمقها بنظرة حادة فسجّل دماغها الاختلاف المحيّر ذاك.

إن وجه لوك ومشيته ووقفته وجلسته، ونبرة صوته العميق واختياره لكلماته، وكل حركة... حتى طريقته في ارتداء ملابسه بثقة غير مبالية... تشير إلى أنه رجل يفي بأيّ وعد قد يقطعه. لم يكن يحتاج لأن يعلن كفاءته... فهي واضحة بكل بساطة، على غرار ذكائه الرائع واستقامته الصلبة كالصخر.

وخطر لسوريل بيأس يقارب الذعر أنها ربما كصغار البط. لعلها فُطرت منذ صغرها على فكرة أن ما من رجل يمكن أن يقارن بلوك.

لا، هذا سخيف، إنها تبالغ في تفسير ردّ فعلها الطبيعي على رجل مثير للغاية التقته في مرحلة حساسة من حياتها، مرحلة كانت فيها سريعة التأثر. كما أنّ كل امرأة تتذكر حبها الأول.

كل ما عليها أن تفعله هو أن تتذكر أنه تابع حياته رغم هوسها القديم به.

سألها لوك بهدوء: «هل من خطب في القهوة؟».

رمشت سوريل بعينيها: «عفواً».

لم تصل ابتسامته إلى عينيه الرماديتين الباردتين وهو يرد:

ـ إنك تحملين الفنجان في يدك من دون أن تشربي منذ عدت.

ـ القهوة ممتازة.

وارتشفت منه بسرعة، قبل أن تضع الفنجان على الطاولة لترتجل:

ـ أرجو ألا يتطلب فتح الطريق وإزالة الركام وقتاً طويلاً.

ـ لا تقلقي بهذا الشأن.

ردت بعصبية: «من السهل عليك أن تقول ذلك، بوجود مولد الكهرباء الكبير! هذا المنزل رائع، لكني أود العودة إلى منزلي، إلى بارينجا».

التقت عيونهما للحظات، قبل أن يلتفت إلى ساعته: «سأتصل بفوربس الآن».

قالت سوريل بهدوء: «سأقوم...».

هبّ واقفاً ومال فوقها بشكل متعمّد قبل أن يقول: «سوريل، اشربي قهوتك وحسب، اتفقنا؟ عليّ أن أتصل بمدير مزرعتي... وأتأكد من أن الجميع بخير، سيتطلب الأمر كله حوالى دقيقتين، ثم سأتصل بالمجلس.»

قالت من بين أسنانها: «توقف عن مقاطعتي. هذا تصرّف فظ، لا يمكنني أن أحتمله».

أومأ برأسه ما أثار سخطها، وقال:

ـ حسناً، إنها عادة سيئة. اللوم يقع على واقع أني طفل وحيد.

وعندما أطلقت سوريل صوتاً كالشخير، ضحك بنعومة ومرر إصبعاً لامبالياً على وجنتها.

لحسن حظها أنه لم يرَ الفوضى التي خلفتها تلك اللمسة الخفيفة المهينة على ملامحها. فقد غزا الاحمرار بشرتها وارتجفت يدها بشدة بحيث كادت تسكب القهوة.

ابتلعت ما تبقى من قهوتها ووقفت ثم قطعت الغرفة بخطوات سريعة، صامتة. لا بد أن الكهرباء ستعود قريباً! كل دقيقة تمضيها في هذا المنزل تضعف

دفاعاتها أكثر.

خرجت إلى الشرفة وهي تشعر بالقلق والتململ، وراحت تحدّق من فوق العشب الأخضر اللامع إلى لمعان النهر الأحمر المائل إلى البني عبر ستار من الجنبات والأشجار.

ربما عليها أن تدير ظهرها للوك ولبارينجا... أن ترحل وحسب قبل أن تتورط كثيراً. يمكنها أن تعالج المسألة. لعلها لن تتمكن من إعادة إحياء حياتها المهنية، إنما قد تجد عملاً ما لها في عالم الموضة.

إلاّ أنها لم تكن ترغب في العودة إلى ذاك العالم، وإذا ما تركت بارينجا، فتكون قد خذلت سيتيا. لسبب ما، بدا مهماً لجدتها أن تمضي ستة أشهر هنا.

وانتعش دماغها وزمّت شفتيها. ستفعل ذلك من أجل سيتيا، سواء أكان لوك موجوداً أم لم يكن.

عندما يكون قريباً ترتبك وتصبح أشبه بفراشة تقع في شباك الانجذاب القاتل نحو شمعة، لكنها في مأمن فهو لا يريدها.

عادت إلى الداخل وبدأت برفع الأطباق عن الطاولة. وحين عادت، كانت تحمل طبق المربى بيد وإبريق عصير البرتقال بالأخرى.

قال بتحفظ: «طريق هاردكاسل في أسفل اللائحة. لم يكونوا على علم بعودتك بالطبع، لكن، ورغم ذلك، ثمة أناس أكثر يستخدمون الطرقات الأخرى. أما الكهرباء فلن يتمكن فريق العمل من إصلاحها قبل فتح طريق ماكلاود هيل».

عبست، ثم سألت: «كم من الوقت سيتطلب ذلك؟».

ـ على الأرجح، لن تحل الأزمة غداً صباحاً.

غمغمت: «هذا غير مقبول».

قال بنبرة ازدراء جرحتها في الأعماق: «عاصفة البارحة كانت سيئة، وقد جاءت بعد فترة جفاف طويلة فتسببت بأضرار بالغة. على أي حال، لا

يهم... يمكنك أن تبقي هنا إلى حين عودة الكهرباء».

انتظر لوك اعتراضها ساخراً، ولم تخيّب أمله. فضاقت عيناها، ورفعت ذقنها وزمّت فمها المغري الذي حرك أحلام ملايين الرجال. إلا أن صوتها جاء صبوراً:

ـ أشكرك على الدعوة، لكن لا داعي لها. يمكنني أن أتدبر أموري.

ـ كيف؟

طرح سؤاله هذا، وهو يحاول كبت فورة الغضب التي تملّكته، ثم أردف:

ـ في منزل يفتقر إلى الأثاث والأغطية، وغير مجهز إلا بمدفأة؟

وصمت قبل أن يضيف متعمداً: «هذا من دون احتساب نقص الماء».

سارت الهوينى إلى المطبخ وقالت بهدوء من الناحية الأخرى للباب:

ـ المشكلة ليست مشكلتك يا لوك.

دخل إلى المطبخ قبل أن يجيب: «لو كانت سيتيا مكانك، فهل تتوقعين مني أن أتركها هناك؟».

وانتظر اعتراضها التالي، وهو يتساءل لما يزعج نفسه. لمَ لا يتركها تعود إلى بارينجا، لتتخبط هناك وتعاني حتى تُفتح الطرقات وتتمكنَ من استعادة أثاث سيتيا؟ إنها لا تعني له شيئاً.

لا شيء سوى المشاكل!

احتقر نفسه لأنه يريدها، حتى بهذه الطريقة الحسية، الجسدية الصرفة. ما كان عليه أن يضم جسدها الناعم بين ذراعيه الليلة الماضية، ليثير ذكريات قديمة، جوعاً عتيقاً...

ـ هذا مختلف. سيتيا كانت عجوزاً. ما من أحد يتوقع منها أن تنام على الأرض!

ثم بدلت لهجتها لتقول: «هذا لطف بالغ منك، إنما...».

ـ لست لطيفاً.

هدّأت صوتها وقالت: «اسمع لوك! لا يمكنني أن أفرض نفسي عليك».

قال بفظاظة: «ما من حل أمامك سوى أن تنامي في السيارة أو أن تعودي إلى بارينجا وتنامي على الأرض. وكلا الحلّين غير مناسب».

إنه محق، تباً له. استعادت رباطة جأشها، وقالت بلهجة رسمية:

ـ لو كان بإمكاني أن أستعير فراشاً...

ـ ليس لدي أي فراش احتياطي.

جادلته وقد استبد بها الغضب: «لا بد أن هذا المنزل يضم أربع غرف نوم على الأقل».

ـ خمس غرف.

كانت عيناه تسخران منها، فقالت بتشنج: «إذاً، يمكنني أن أستعير فراشاً؟».

قال بصوت بارد وقاطع: «لا، فالغرفة الوحيدة المفروشة باستثناء غرفتي هي تلك التي استخدمتها لتوك. توقفي يا سوريل. سيتوجب عليك أن تأتي إلى هنا لتناول الطعام وللاستحمام؛ لذا، يمكنك أن تنامي هنا أيضاً».

اضطربت سوريل. نظرة واحدة إلى وجهه أعلمتها أنه لن يتراجع ولن يذعن.

قالت بتصلب: «مستبد كعادتك دوماً. أنا لست بطة أو إحدى فراخها الضعيفة».

تكهن بسبب معارضتها وحسمه بقساوة سريعة: «لكنك تعتبرينني مفترساً، على غرار الصقر. لا بد أنّ الليلة الماضية أظهرت لك أنك آمنة معي؟».

وزم شفتيه ازدراء قبل أن يردف: «لن أطالبك بأيّ ثمن لقاء استخدامك السرير هنا».

نظرته الباردة وملامحه الصلبة أعلمتها أنها لا تؤثر فيه البتة. حسناً، إنها

تتمتع بمناعة ضده. . . باستثناء ذلك التجاوب الجسدي الموجع، لكنها لن تستسلم له. فهي تريد من الرجل أكثر من انجذاب جسدي لا عواطف فيه، مهما كان هذا الانجذاب قوياً.

سيطرت على فيض العواطف المشوشة التي اجتاحتها، وقالت ببرود:

- لا أتوقع بالطبع أن تطالبني بثمن لقاء إعارتي سريراً.

وباستثناء زمّه لفمه المتعجرف، لم يظهر أيّ رد فعل على كلامها:

- إذاً، ما من داعٍ للعودة إلى بارينجا حتى تستردي الأثاث وكافة الحاجيات.

التقت عيناها بنظرته المتصلبة. رفعت سوريل عينيها نحو السماء لكنها وافقت بقدر ما استطاعت من اللباقة: «شكراً لك».

إلا أنها أفسدت لباقتها حين أضافت: «إنك عنيد كالتيس».

فقال ببساطة: «هكذا قيل لي. إذن، لقد حسم الأمر».

حاولت سوريل أن تستعيد الهدوء الذي عملت طويلاً لتكتسبه، لكنها فشلت، ففتحت الباب تحت الحوض وحدّقت إلى داخل الخزانة.

أمرها عندما رآها تخرج منظفاً: «اتركي هذه الأغراض!».

- لماذا؟

استقامت ورمقته بنظرة مشاكسة.

- معظم هذه الأواني تُغسل في الجلاية، وستهتم مدبرة المنزل بالبقية.

وضعت سوريل السائل في الحوض، وقالت بتشنج: «املأ الجلاية فيما أغسل هذه. كيف ستصل مدبرة منزلك إلى هنا؟ بواسطة المنطاد؟».

- إنها تعيش فوق المرآب؛ وبالتالي، يكفي أن تنزل بعض الدرجات لتدخل من الباب الخلفي.

والتفت إلى ساعته قبل أن يردف: «في الواقع، ستصل قريباً».

هذا الوضع حميم جداً. وتذكّرت سوريل مناسبات أخرى، ليالي حين

كانت سيتيا تدعوه إلى العشاء وتهتم به كثيراً. . . اهتماماً كان يتحمله بابتسامة لأنه وكما قالت سيتيا يوماً لسوريل: «إنه يعلم أني أشعر بتحسن حيال شرائي البيت منه!».

كان يافعاً على تحمل عبء مسؤولية واينامو، لكنه لم يطلب تعاطف أحد يوماً. وكان ذكياً وعديم العاطفة بما يكفي ليتخذ قرارات صعبة كبيع بارينجا كي يتمكن من استخدام المال ليخرج إرثه من مستنقع سوء إدارته.

صوت الباب وهو يفتح جعل سوريل تلتفت؛ ودخلت إلى الغرفة امرأة في أواسط الأربعين من عمرها. الابتسامة التي علت وجهها تجمدت حين رأت سوريل، إنما ردّ فعلها هذا لم يدم سوى ثوانٍ. . . واستبدلته بنظرة استفهام رمقت بها لوك الذي كان يحمل الزبدة والعسل إلى الثلاجة.

- سوريل هذه بين ترنر التي تدير المكان. إنها مالكة بارينجا يا بين لكنها ستبقى هنا حتى يعود التيار الكهربائي.

تبادلت سوريل وبين التحية، ثم دخلت مدبرة المنزل، وهي امرأة جميلة، ذات شعر أسود وعينين زرقاوين واسعتين وابتسامة جاهزة إلى المطبخ وقالت: «سأنظف هذه بدلاً منك!».

فردت سوريل آلياً: «لا بأس».

ابتسمت بين بتصميم مهذب، وقالت: «الضيوف في واينامو لا ينظفون الصحون!».

والتفتت إلى كومة الأواني على الطاولة وأردفت: «أويملأون الجلاية! دعي هذا لي!».

تراجعت سوريل، مستسلمة بابتسامة للمرأة الأقصر منها، وقالت بخفة: «بالطبع».

وخرجت من المطبخ عبر الباب الذي أبقاه لوك مفتوحاً لها.

تبعها بصمت، لكن عندما ابتعدا قليلاً في الردهة، سألها: «ما الخطب؟».

لطالما كان قادراً على قراءة أفكارها. أخفضت صوتها تقلّده:

ـ سوريل ستبقى هنا. إنه أسلوب الرجل التقليدي، كمن يقول لزوجته: عزيزتي، أحضرت معي عشرة من أصدقائي ليتناولوا العشاء معنا! من دون أن يسأل ما إذا كان الطعام كافياً للجميع.

جاءت ابتسامته حادة قبل أن يرد: «أنا أدفع لبين راتباً كي تتعامل مع هذه المواقف. أنا واثق من أن ما من عارضة أزياء مشهورة تقلق بشأن تحضير العشاء إذ ما وصل صديقها مع ضيف. فما فائدة المطاعم بالطبع؟».

سألت بسخرية لاذعة: «هل هناك مطعم قريب؟».

ـ نحن نخزّن الكثير من الطعام.

وهزّ كتفيه باستخفاف قبل أن يضيف: «ماذا تودين أن تفعلي اليوم؟».

ـ سأبدأ بتنظيف بارينجا.

التقى حاجباه عند أعلى أنفه في تقطيبة مفاجئة: «ماذا؟».

ـ لقد سمعتني. المنزل يحتاج إلى تنظيف.

فأشار بعناد: «كما يحتاج إلى طلاء وإلى بعض التصليحات... تصليحات كان ينبغي إجراءها في السنتين الماضيتين... والحديقة تحتاج إلى عناية خاصة. فهل تنوين القيام بهذا كله أيضاً؟».

بدا واضحاً أنه يعتقد أنها تفتقر إلى العزم والقوة والصبر فضلاً عن العقل. قالت سوريل بتشنج: «سأقوم ببعض هذه الأعمال. أنا لا أنوي تمضية وقتي في طلاء أظافري. والآن إذا ما أرشدتني إلى مكان الملاءات فسأتمكن من تحضير سريري في غرفة الضيوف».

سخر منها قائلاً: «وهل تذكرين كيف تفعلين ذلك؟».

نظرت إلى عينيه مباشرة وردّت من دون تردد:

ـ لِمَ تهاجمني؟ بالطبع، أذكر... أنا أرتب سريري كل صباح! فهل تفعل أنت؟

التفت إلى ساعته وقال: «نعم. لدي اتصال هام أجريه، لكن إذا ما منحتني خمس دقائق فسأحرص على أن تصلك الملاءات».

شرعت تصعد السلالم وقد بلغ بها الغضب حداً منعها من البقاء معه. وعندما وصلت إلى منتصف الطريق، توقّفت والتفتت ثم انحنت من فوق الحافة. كان يراقبها وقد استحال وجهه قاتماً وغامضاً. قالت له بصوت معسول: «حان الوقت لتدرك أني أصبحت راشدة وأني أدرك ما أفعله».

رد بلا مبالاة: «لطالما أدركت ذلك».

ورمقها بنظرة اخترقتها كنصل السيف قبل أن يضيف: «يبدو أن معظم النساء يولدن وهن يدركن ذلك».

قالت بعد أن استقامت: «يبدو هذا أقرب إلى منطق من يكره النساء».

ـ أنا لا أكره النساء.

ـ لكنك لا تثق بهن.

قال بابتسامة أشبه بابتسامة الليث قبل أن ينقضّ على فريسته: «أنا أثق بمن يستحق ذلك».

سرت قشعريرة في جسدها فيما استدار على عقبيه واختفى في إحدى الغرف المجاورة للبهو.

بعد خمس دقائق، كانت قد نزعت الأغطية عن السرير، وشرعت ترتب محتويات حقيبتها في الحمام حين سمعت طرقة على الباب الخارجي.

كان لوك حاملاً كومة من الملاءات. تجاهل ذراعيها الممدودتين وأنزل حمله على المقعد الأنيق عند أسفل السرير. وتناهى إليهما صوت خطوات في البهو، ترافق مع نداء اسمه. أعلنت بين: «اتصال لك! إنه السيد سيزرلند... قلت إنه مهم».

جمد للحظة من دون أن تعكس ملامحه أي تعبير، ثم استدار:

ـ سأنزل في الحال.

وما إن أغلق الباب خلفه حتى هرعت سوريل إلى تحضير السرير. كانت تضع الغطاء عندما سمعت طرقة أخرى على الباب.

قالت وهي تتوقع رؤية بين: «ادخل».

لكنها لم تكن مدبرة المنزل بل لوك الذي وقف في الباب مقطباً. سألته سريعاً: «ما الأمر؟».

ازداد تقطيبه قبل أن يجيب: «لا شيء، سأذهب إلى أوكلاند».

ـ كيف؟

رد بإيجاز: «بالهليكوبتر، هل تريدين مرافقتي؟».

قالت بأرق صوت: «لا، شكراً لك. سأكون بخير».

ـ لن أعود الليلة، لكن بين ستعتني بك.

ـ لا أحتاج لمن يعتني بي.

قالت سوريل هذا بنبرة عكست شيئاً من البرودة، ثم أضافت بابتسامة ساخرة: «إنما علي أن أعترف بأني أفضّل النوم في هذا السرير الرائع بدلاً من النوم على الأرض في بارينجا».

ابتسم ابتسامة مختصرة وقال بصوت جعلها تلتفت إليه بحدة: «وأنا أيضاً».

وللحظة، تدفقت ذكريات الليلة الماضية إلى دماغ سوريل، فاصطبغت بشرتها بلون أحمر، لكنها رفعت ذقنها بعدائية.

قالت بصوت أجش: «أتمنى لك رحلة موفقة».

ومن دون أن ينبس بكلمة واحدة، خرج من الغرفة وأغلق الباب خلفه.

جلست سوريل عند أسفل السرير وقد تسارعت دقات قلبها، وراحت أناملها الطويلة تداعب الحرير الملون. الليلة الماضية، كانت أشبه بالجنة بين ذراعي لوك، لا بل أكثر من جنة.

طرقة أخرى على الباب جعلتها تقطع الغرفة.

وجدت بين في الباب. قالت هذه الأخيرة بصوت مدهوش: «آه! لقد

رتبت السرير! أتيت لترتيبه».

ـ لم أشأ أن أزيد من أعمالك.

تمنت سوريل لو كان بمقدورها أن تتخلص من الشعور بأن هذه المرأة لا تكنّ لها أي مودة.

ابتسمت بين بتسامح: «حسناً، هذا عملي. سأعود لأنظف الحمام بعد خروجك».

قالت سوريل: «يمكنني أن أفعل هذا أيضاً».

بقيت المرأة الأكبر سناً مبتسمة، وقالت بضحكة خفيفة: «لا أظن أن لوك سيرضى بأن يقوم ضيوفه بالأعمال المنزلية. لا بأس... أنا لا أتجسس».

ـ لم أقصد... أنا واثقة من أنك لا تفعلين.

وخطر لسوريل أنها الجولة الثانية التي تكسبها مدبرة المنزل. أغلقت الباب وهزّت كتفيها. ستدرك بين أنها لا تحاربها. في هذه الأثناء، ستعود إلى بارينجا فهي بحاجة إلى بعض الراحة.

استجمعت قواها ونزلت السلالم. كادت تصل إلى أسفلها عندما سمعت صوتاً خفيفاً ورأت باباً يفتح في البهو. خرج لوك وتوقف ما إن رآها. وقف في الظل، إلا أنها شعرت بانتباهه مركزاً عليها، وعلى الرغم من كل شيء، شعرت بسعادة عارمة لأنها تعلمت أن تسير دوماً برشاقة.

ـ أنا راحلة.

قالت هذا وهي توجه إليه ابتسامة مقتضبة من دون أن تتلاقى عيونهما.

قال لوك فجأة: «يبدو أن بين تعتقد أنك تتهمينها بالتجسس».

عبست سوريل وحاولت أن تتذكر ما قالته حرفياً: «أنا آسفة لأنها ظنت ذلك. قلت لها إني سأنظف الحمام لأني لا أريد أن أزيد أعمالها وليس لأني لا أثق بها».

ـ هذا عملها!

وأضاف متعمداً: «أنت تفاجئينني».

ردّت وقد ارتفع صوتها بعض الشيء: «لأني قادرة على تنظيف حمام؟ لقد اعتدت أن أنظف شقتي بنفسي عندما أكون فيها».

ورفعت حاجبها ثم أنهت كلامها بسخرية لاذعة. «تمتع بوقتك في أوكلاند».

وخطت الخطوة الأخيرة بتأنٍ واسترخاء، وقد أزعجها أن يتمكن من القضاء على هدوئها. مرّت به وقد انتصب ظهرها وتشنج إلى حد أنها ظنت أنها سمعت عمودها الفقري يشتكي ويتذمر.

أحست بعينيه تحدّقان بتركيز قوي إلى كتفيها حتى اختفت عن ناظريه عند الزاوية.

لِمَ تسعى بين إلى إثارة المشاكل؟

٦ ـ امرأة خرقاء

فيما كانت تتأمل غرفة النوم الرئيسية في بارينجا، سمعت سوريل صوت محركات الهليكوبتر. رمشت بعينيها مع تعاظم ضجيج المحركات وركضت إلى النافذة وفتحتها على اتساعها ليدخل الهواء والشمس.

لم تستطع أن ترى الطائرة تقلع، لكنها سمعتها ترتفع فوق التلال. ما الذي تطلّب سفر لوك إلى أوكلاند؟

قالت بصوت عالٍ وهي تتوقف لتداعب باغي: «الأمر لا يعنيك».

وما لبثت أن استقامت وتلفتت تتأمل الغرفة مجدداً. أمامها الكثير من العمل.

وبعد ساعتين، شعرت بقلق مزعج يعتصر أضلعها بعد أن راجعت شاشة الكمبيوتر. لم تتوقع أن يحتاج بارينجا لهذا القدر من التصليحات الظاهرة، ولا بد من وجود أخرى لم تلاحظها.

كم ستكلف هذه التصليحات يا ترى؟

ـ سنبدأ بالتصليح.

قالت هذا لباغي ثم عبست وأردفت: «ليت الطريق مفتوح... أحتاج لبعض الأغراض. حسناً، سأرى إن كان بإمكاني أن أستعير بعض مواد التنظيف من مدبرة منزل لوك لأبدأ التنظيف بعد الغداء».

والتفتت إلى ساعتها قبل أن تتابع: «من الأفضل أن أعود الآن».

عندما وصلت إلى منزل لوك، استندت إلى الباب الخلفي واستمعت. لفّها

www.elromancia.com

الصمت والهدوء، وعزلاها عن الدفء والحياة، معلنين لها بطريقة غريبة أنه غائب.

وتجهّت سوريل نفسها لأنها غرقت في أوهام غبية، ثم هزّت كتفيها وتوجهت إلى المطبخ.

قالت بلهجة فرحة وهي تفتح الباب: «مرحباً».

أوقعت بين قدراً في الحوض قبل أن تستدير وقد ضغطت يداً على قلبها.

بعدئذ، أخذت نفساً عميقاً وابتسمت قائلة: «آسفة، فأنا أصبح عصبية عندما أكون وحيدة. الغداء جاهز... الأطباق على الطاولة في الغرفة العائلية، إذا كان الأمر يناسبك. الغرفة من هنا».

ـ عظيم.

قالت سوريل هذا وهي تتبعها وقد استنتجت أنّ عليها من الآن وصاعداً أن تدق الباب كلما وصلت إلى واينامو.

ـ منذ متى يقود لوك هليكوبتر؟

ـ منذ حوالى أربع أو خمس سنوات... منذ أن اشترى واحدة.

وفتحت المرأة باباً ثم تراجعت لتدع سوريل تتقدّمها إلى الغرفة الجميلة حيث تناولت فطورها مع لوك.

وتابعت تقول بابتسامة بريئة: «لم يكن لينجح من دونها، فإدارة شركة زراعية كبيرة تعني الكثير من السفر، كما أن حياته الاجتماعية حافلة أيضاً. سيحضر العرض الأول لأحد الأفلام الليلة مع... صديقته، الآنسة أونيل».

وبالرغم من الطعنة التي تلقتها سوريل وأدمت قلبها، إلا أنها حافظت على قناع الاهتمام المؤدب. وقالت بلهجة محايدة: «يبدو الأمر ممتعاً».

ـ أظن أنك اعتدت حضور العديد من هذه العروض.

ـ البعض منها.

ابتسمت مدبرة المنزل ابتسامة أخرى عريضة وبريئة:

ـ لا بدّ أن تسليط عدسات آلات التصوير عليك ومراقبة الكل لك أمر مثير.

ردّت سوريل بنبرة مرحة: «تعتادين على الأمر. من فوائد عرض الأزياء أن الكل يعتبر وجودك للزينة فقط فلا أحد يتوقع منك أن تكوني ذكية بما يكفي لتقولي أكثر من كلمتين مفيدتين».

بدت بين مدهوشة: «حسناً، نعم. اسمعي، طلب مني لوك أن أؤكد لك أنه يمكنك أن تبقي هنا بقدر ما تشائين. إن كان هناك ما يمكنني أن أفعله لمساعدتك، فما عليك إلا أن تعلميني».

همست سوريل: «كم هذا لطيف. في الواقع، ثمة...».

وبعد ساعة، عادت إلى بارينجا، حاملة معها كومة من الملابس ودلواً ومواد تنظيف مختلفة. لقد سلمتها مدبرة المنزل هذه الأغراض بابتسامة مؤدبة تشير إلى أنها لا تعتقد أنّ ضيفتها غير المرحب بها تعرف شيئاً عن الأعمال المنزلية.

قالت سوريل من بين أسنانها: «حسناً، ساريها هي وكل من يعتقد أنني مجرد زينة لا فائدة منها».

استغلّت العمل الشاق لتكبح شعور الغيرة العنيف الذي تملكها منذ أخبرتها مدبرة المنزل بسبب سفر لوك إلى أوكلاند. تنظيف المطبخ والحمامات بعناية مفرطة شغلها عن تخيله مع ماري أونيل.

وعندما عادت إلى واينامو ذاك المساء، كانت منهكة لا تودّ سوى الاستحمام وتناول الطعام. لكن النظافة تأتي أولاً، وحين نزلت أخيراً بعد حمام طويل، وجدت بين تنتظرها عند أسفل السلالم.

ـ لمَ لا تجلسين في غرفة الجلوس. سأحضر لك بعض العصير ومن ثم أقدّم العشاء عندما تصبحين جاهزة. لا بد أنك منهكة.

ـ أنا متعبة بعض الشيء.

اعترفت سوريل بذلك، كابحة رغبتها في أن تشير إلى أنها ليست ضعيفة أو عديمة الفائدة وفي غرفة الجلوس، توقفت وقالت:

ـ لديك ما يكفي من العمل من دون أن تضطري لخدمتي. تبدو مضيعة لوقتك أن تحضّري الوجبات لي في حين أني قادرة على القيام بذلك بنفسي.

ـ لن يرضى لوك بذلك.

وكأن أمنيات لوك أوامر تحفر في الصخر. ولاحظت عينا سوريل حركة شفتيها التي بدت أقرب إلى التحدي منها إلى الابتسام.

إن كانت ماري أونيل جزء مهماً من حياة لوك، فلِمَ تعتبرها بين كتهديد؟

ربما لأن مدبرة المنزل تحب ماري، لن يفاجئها ذلك، فمعظم الناس يحبونها.

حتى هي نفسها كانت تحبها رغم تحطّم قلبها المراهق!

سألت مدبرة المنزل بنبرة تميل إلى التملك: «ماذا تودين أن تشربي؟».

أجابت سوريل بنبرة باردة، رافضة أن تثير أعصابها محاولات السيطرة عليها:

ـ لا شيء، شكراً لك. سآخذ العشاء على صينية ومن ثم سأصعد إلى غرفتي.

بدت بين متفاجئة: «ولكن...».

قالت سوريل بحزم: «شكراً لك».

فقالت مدبرة المنزل بنبرة مشككة: «إن كنت واثقة من أن هذا ما تريدين؟».

ـ كل الثقة.

انتظرت سوريل حتى غادرت المرأة قبل أن تتأمل غرفة الجلوس الأنيقة، المطلة على النهر الذي يجري تحت الشرفة الكبيرة. وبالرغم من أن المشهد رائع ومريح للأعصاب إلا أنه لم يهدئها أبداً.

كما لم تنفع تقنيات التأمل التي مارستها لاحقاً ذاك المساء وبعد عشرين

دقيقة أمضتها في تصوّر لوك وماري بكافة الألوان، فتحت عينيها.

اعتصرت الوحدة قلبها وجعلتها تقف على قدميها وتتوجه إلى النافذة. صديقتها الحميمة تعيش على بعد ساعة من منزلها، لكن إيما وزوجها كين تالبوت سافرا إلى كندا مع ابنتهما الرائعة كريسي، البالغة من العمر أربع سنوات، ولن يعودوا قبل ثلاثة أسابيع. من الرائع أن تعيش قريبهم...

لقد سافرت إلى فانكوفر لتراهم قبل أن تعود إلى نيوزيلندا. كانت المناسبة حلوة ومرّة في آن، فسعادة إيما مع زوجها الرائع بدت جلية بحيث حاولت سوريل جاهدة ألاّ تحسدها.

أما كريسي...

انحنت سوريل إلى الأمام وتنشّقت الهواء البارد، المالح بعض الشيء. وفاح عطر غريب، يميل إلى الحلاوة، من الحديقة في الأسفل. لقد عانت من ترك كريسي، ابنتها في العمادة. إلا أنها ستراها قريباً.

عضت سوريل على شفتها. كريسي فتاة رائعة وعزيزة، لكنها تريد أن ترزق بأولاد، هذا ما أدركته فجأة ما جعلها تشعر بصدمة. لعل الاهتمام بابنتها في العمادة جعل غرائزها تتحرك، إنما لِمَ بدا لها وضعها كفتاة وحيدة مؤثراً للغاية فجأة؟

ماذا يفعل لوك في هذه اللحظة؟

ـ آه، بالله عليك!

همست بذلك، محاولة جهدها أن تطرد طيف ماري ووجهها الجميل الحيوي من عقلها.

هل ظنّ ليلة أمس أنه يعانق ماري، حتى أدرك هوية المرأة بين ذراعيه؟

شعورها بالذل والمهانة جعلها تشحب.

لكنه أدرك هويتها عندما استمر في عناقها، هذا ما راحت تعزي نفسها به. ولسبب ما، لم تستطع أن ترى لوك كخائن.

لذا، مهما كان نوع العلاقة التي تربطه بماري، فلا بد أنها أقل من علاقة عاطفية. أم لعل أفكارها تعكس آمالها، فتسبغ عليه مزايا لا يتمتع بها؟

طرقة على الباب قاطعت أفكارها المعذبة وأراحتها.

سألت مدبرة المنزل عندما فتحت لها سوريل الباب:

- أتجلسين في الظلام؟

- إني أمتّع نظري بالمشهد من النافذة.

- إنه جميل، أليس كذلك؟ حسناً، لقد أنهيت عملي الليلة. إنما وقبل أن أذهب، ظننت أنه من الأفضل أن أعلمك أن المنزل مجهز بأجهزة إنذار. لذا، إذا ما كنت بحاجة لأي شيء من خارج غرفتك فمن الأفضل أن تحضريه الآن قبل أن أشغّل الأجهزة.

فردت سوريل بهدوء: «لا أحتاج شيئاً، تصبحين على خير».

يا له من تلميح أخرق إلى عدم التجول في الأنحاء!

عادت ساخطة إلى النافذة. لقد وصلت في الأمس مليئة بالآمال، متوقعة أن تبني حياة جديدة هنا، إلاّ أن آمالها خابت وخططها فشلت في خلال الأربع وعشرين ساعة الأولى. كانت واثقة من أن لوك لا يعني لها شيئاً؛ لكن ما إن وقعت عيناها عليه حتى تجاوبت مع رجوليته بقوة هزتها وجعلتها عاجزة، هي القوة نفسها التي عذّبتها منذ عشر سنوات خلت.

إن تمضية الليلة الأولى بين ذراعيه ما هي إلا لعبة حقيرة من القدر. فقد أحرقتها حاجة مألوفة، حاجة نسيتها، وضاع اتزانها في مهب الريح، في العاصفة الهوجاء التي اجتاحت مشاعرها.

- هذا مذل.

همست بذلك لنفسها وهي تتراجع وتلتفت لتتأمل الغرفة الجميلة. وفجأة، عاد السؤال الذي خطر في بالها يضايقها. لِمَ لم يؤثث لوك أي من غرف النوم سوى غرفته وهذه الغرفة؟

لعله ينتظر أن تفعل ماري هذا؟

أربع وعشرون ساعة في بارينجا فعلت بها هذا، فكيف ستتحمل ستة أشهر؟

قالت بوضوح للحنفيات فوق الحوض: «لأن عليك ذلك، ولأن سيتيا أرادت ذلك».

هذا الهوس بلوك مجرد أثر من المراهقة، أمر لا تريده ولا يمكنها تحمل نتائجه... إنما يمكنها أن تتغلب عليه بشيء من قوة الإرادة والتفكير السليم. سوف تجد الخلاص في تنظيف بارينجا وطلاء جدرانه الرثّة؛ لن يكلفها ذلك كثيراً أو لن يكون صعباً بالطبع. لم تكن سوريل تخشى العمل الشاق...

إنما ماذا عن قلبها في هذه العملية؟

وعادت بشكل آلي إلى روتينها الليلي، فتساءلت مضطربة لما يبدو أن لوك اتخذ لنفسه مقراً دائماً في... حسناً، ليس في قلبها، هذا مؤكد. إنها لا تحبه، لكن يا لتأثيره على هورموناتها! هذا غير عادل، ومثير للأعصاب وخطر.

النساء الأخريات يبتسمن بجنان عندما يتحدثن عن حبهن الأول ثم يربطن الذكريات بشريط معطّر ويضعنها بعيداً إلى الأبد. لِمَ لم تجرِ الأمور معها على هذا النحو؟ لم تنجح أبداً في التخلص من ذكرى عناق واحد.

عناق واحد! إنه بالكاد كافٍ لبناء حياة كاملة من الذكريات عليه. لكن ذكرى ذاك العناق اتقدت، فهي لا تزال ساطعة ولم تبهت، وكأنها لم تكبر وبقيت تلك الفتاة ذات الثامنة عشرة سنة التي أحبت لوك عن بُعد. إذا أغمضت عينيها، فيمكنها أن ترى كيف انحنى نحوها، وأن تتذكر ذاك الوميض الأزرق في عينيه الرماديتين ووجهه الداكن الذي توتر فجأة. حينذاك، حبست أنفاسها وانتظرت أن ينبذها...

وبدلاً من ذلك، أخذها بين ذراعيه بلطف ما جعلها ترتجف سعادة.

قال لها بصوت عميق، لطيف: «إنك رائعة».

عانقها عناقاً طالبها بكل ما هو أنثوي فيها واستسلمت خاضعة إنما متطلبة في آن. . .

ذكّرت نفسها وهي تحدق إلى المرآة: نعم، كان الأمر رائعاً. . . يدمّر الروح، يعطل العقل، ويهز الأرض. . . إنما لا تنسي ما حصل لاحقاً. ابتعد عنك كما فعل الليلة الماضية بالضبط ثم اعتذر. . . بطريقة مفاجئة وكأنه يكرهك. . . بعدئذ، قال إنه لن يعاود الكرة أبداً.

لقد عانقها بقوة جامحة لا تزال ترسل الرعشة في جسدها، لكنه كره نفسه لذلك. . . تماماً كما فعل الليلة الماضية.

رفعت ذقنها والتفتت لتجفف وجهها.

سواء كره نفسه أم لم يفعل، إلا أنه يريدها.

هذه الفكرة جعلت دقات قلبها تتسارع والاحمرار يغزو بشرتها.

لكن الليلة الماضية عززت لديها القناعة بأنه لا يشعر نحوها بسوى انجذاب جسدي صرف. وهي تستحق أفضل من ذلك.

نعم، عليها أن تصوغ حياتها من جديد، وبارينجا هي الخطوة الأولى. ستجد القوة اللازمة لمقاومة تأثير لوك عليها.

ربما عليها أن تكون ممتنة لحقيقة أنه إذا علم بأفكارها ومشاعرها لساند قرارها من كل قلبه!

* * *

في الصباح التالي بعد رحيل لوك، فُتحت الطرقات وعاد التيار الكهربائي، فجمعت سوريل مؤنها من ثلاجة وايناموشكرت بين ثم عادت إلى بارينجا.

وبعد ظهر ذاك اليوم، قصدت كيري كيري لتشتري أدوات التنظيف وتستعيد أثاث سينتيا من المخزن.

ومرّت الأيام في غمضة عين. نظّفت سوريل المنزل من الداخل، ثم اختارت ألوان الطلاء واشترته. راحت تعمل بكد بحيث تستلقي مع حلول

الليل في فراشها وتغط في نوم عميق، خالٍ من الأحلام.

وبعد مرور أسبوع على رحيله، عادت سوريل عند الغسق من نزهة على الشاطىء، وقد أدركت بانزعاج غاضب أنها أمضت أيامها تصغي إلى صوت الهليكوبتر.

ـ تجاوزي المسألة!

أمرت نفسها بذلك بنبرة ساخرة وانحنت تشتم عطر إحدى أزهار الغاردينيا. كان الصيف يطرد الربيع سريعاً، حاملاً معه أزهاراً أخرى. . .

أجفلت حين أحسّت بألم في ظهرها، فاستقامت وراحت تتأمل ملكيتها الجديدة. أحواض الزهور لا تزال تعاني من نقص في العناية.

وعدتها قائلة: «سأهتم بك ما إن أنتهي من الأعمال في المنزل».

ستخصص الأسبوع المقبل للطلاء والتلميع ولفرز الأثاث الذي جمعته جدتها في حياتها. فبيع بعض كنوزها سيدر عليها مالاً يساعدها في استبدال بعض القطع وإجراء بعض التصليحات الطفيفة إذا ما حالفها الحظ.

قالت سوريل لباغي وهي ترفع طعامه وتفتح له الباب قليلاً لكي يتمكن من الخروج لإجراء جولته الليلية على المكان: في هذه الأثناء، سأستحم. سأستلقي في حوض الاستحمام لنصف ساعة على الأقل.

وبعد عشر دقائق، استلقت في المياه المخملية التي أضافت إليها بضع نقاط من الزيوت العطرة.

ـ هذا رائع.

أرجعت رأسها إلى الخلف ومدّت ذراعيها على حافتي الحوض القديم الباردتين ثم تقلّبت في المياه العطرة المريحة إلى أقصى حدّ.

من الأفضل أن أخرج من المياه، هذا ما خطر لها في المرة الثانية التي تمكنت فيها من فتح عينيها.

واستيقظت مجفلة عند سماع اسمها بصوت ذكوري غاضب: «سوريل!

سوريل، أين أنت؟».

ـ هنا.

ردّت بصوت خفيض أجش قبل أن يتسنى لها أن تفكر، ثم طرفت بعينيها وسارعت لأخذ منشفتها في الظلمة.

ـ أين؟

جفّ فمها واستقامت. لوك! خذلتها عظامها فحين حاولت أن تقف رفضت ساقاها أن تتحمل وزنها. خرجت صرخة مدهوشة من بين شفتيها فيما كانت تنزلق مجدداً في المياه.

ـ ماذا...؟

النور المفاجىء أعماها.

دخل فجأة واستوعب بنظرة شاملة ما يجري، ورآها في الحوض ملتفة بالمنشفة الرطبة تتمسك بها وكأنها درع يقيها.

ـ بالله عليك يا سوريل، لا تقولي لي إنك كنت من الحمق بحيث غفوت في الحمام!

همست وقد روّعها حمقها: «أنا... نعم».

ـ كان بالإمكان أن تغرقي.

وسجّلت العينان الرماديتان العابستان محاولاتها للتمسك بالمنشفة الرطبة والاختباء خلفها.

ـ لوك، اخرج أرجوك.

ـ هيا انهضي.

وعندما لم تتحرك أضاف بإيجاز: «لا يمكنك النهوض، أليس كذلك؟».

وفي حركة قوية واحدة، انحنى فوقها ورفعها ثم أوقفها على قدميها على سجادة الحمام. ومجدداً، خذلتها ساقاها، لكن حين وضع لوك ذراعيه حولها تملّكتها حمى في معدتها. ثم رفعها وتوجه بها إلى البهو وهي كالطفل بين ذراعيه.

قالت بصوت مرتجف فيما قلبها ينبض بجنون في صدرها: «أنزلني».

ـ أنت عاجزة حتى عن الوقوف، فما الذي يجعلك تظنين أنك قادرة على السير؟

إنه محق. وقررت أن تغير لهجتها فقالت:

ـ لا تصعد إلى الأعلى... فأنا أستخدم غرفة الخدم في الخلف.

وبعد لحظة من التردد، تحرك بثقة وثبات في المنزل المظلم. سألها: «منذ متى وأنت في الحمام؟».

ـ لا أعلم... منذ الغسق.

ـ منذ أكثر من ساعة.

وأضحى صوته أقسى وهو يضيف: «تحتاجين إلى قيّم عليك».

ـ لن يتكرر الأمر.

الحمد لله أن الظلام حالك؛ فلن يتمكن من رؤية احمرار وجهها واضطرابها من قربه.

غضبه البارد والجامح لفها حين قال: «من الأفضل ألاّ يتكرر. لِمَ تنامين في الأسفل؟».

ـ النوم هنا مناسب أكثر.

فتح الباب بكتفه وأضاء النور ثم خطا داخل الغرفة الصغيرة. وما لبث أن شتم بصوت خفيض عندما ارتطمت قدمه بالسرير المزدوج الذي احتل معظم مساحة الغرفة. وبعد لحظة، كانت تقف على قدميها، شاحبة ومترنحة.

قالت بثقل وهي تتشبث بالمنشفة: «هلاّ خرجت من فضلك؟».

ـ في هذه اللحظة، أرغب في هزك حتى تستعيدي وعيك أكثر مما أرغب في التحرش بك، فلا تقلقي واسترخي.

كانت لا تزال مشلولة خوفاً مما كان ليحصل لو لم يصل لوك في الوقت

المناسب. إنما، لم تشأ أن تعترف بخوفها، فقالت له بإرهاق: «أخرج يا لوك!».

سألها لوك بنبرة أرسلت الرعشة على طول عمودها الفقري: «هل يمكنك تدبر أمرك؟».

همست وهي تجفف بشرتها المرتجفة: «بالطبع».

فقال باختصار: «سأحضر الشاي. اصرخي إذا ما احتجت لأي مساعدة».

وقطع الغرفة من دون أن يلتفت إليها واختفى بصمت في البهو.

راقبته سوريل وهو يبتعد نحو المطبخ ثم ارتمت على طرف السرير وأنهت تجفيف جسمها.

وعندما انتهت، نظرت إلى بنطلون الجينز الذي كانت تنوي ارتداءه وأدركت أنها لن تتمكن من ذلك أبداً، فهي تفتقر إلى القوة.

فكرة أن يعود لوك للبحث عنها أجبرتها على التحرك، فوقفت على قدميها وتوجهت إلى الخزانة حيث اختارت تنورة وقميصاً مناسباً. وبالرغم من أنها جاهدت لترتدي ملابسها، إلا أنها كانت محتشمة تسرّح شعرها عندما ظهر لوك ووقف بعتبة الباب.

تأمل وجهها بنظرة باردة، غير متساهلة: «كيف تشعرين؟».

ـ بحال أفضل، شكراً لك.

وتحولت نظرة سوريل إلى قميصه المبلل بسبب حمله لها.

وقفت متجنبة نظرته النافذة ومشت بتأنٍ نحوه، وقد شدّ من عزيمتها تدفّق مفاجىء للأدرينالين ما زاد من طاقتها.

ـ لقد عدت إلى طبيعتي، كما ترى.

راقبها بعينين ضيقتين، مقدراً رغماً عنه تصميمها على ألاّ تستسلم.

تنحى جانباً ليدعها تمر من الباب فاشتمّ رائحة خفيفة، حلوة إنما مع لمسة خفية من الإثارة، رائحة محت السنوات وكأنها لم تمرّ أبداً. لقد أهدتها سيتيا هذا

العطر في عيد ميلادها الثامن عشر؛ وفي محاولة منه لإنقاذ نفسه من انجذاب حواسه المذل، راح يفكر في أنها وضعت هذا العطر لأنها تعرف قدرته على البقاء في الذاكرة.

لم تكن قد وضعت أيّ زينة على وجهها، وقد شدّت شعرها إلى الخلف في عقدة غير شديدة، فيما ظهر بعض السواد تحت عينيها، إلا أنها بدت جميلة جداً... أجمل مما بدت في تلك الصورة لها بين ذراعيّ رجل آخر، وقد رفعت وجهها الرائع نحوه وابتسمت ابتسامة بطيئة تحمل في طياتها دعوة.

تبعها لوك إلى البهو وقد تملكه غضب عارم. كان مستعداً للإمساك بها إذا ما وقعت، لكنها لم تفعل.

في المطبخ، جلست إلى الطاولة وقد عاد بعض اللون إلى وجهها. قالت بشكل غير متوقع: «أنا آسفة».

سألها وهو يصد غضبه: «لأنك كدت تموتين؟».

أحنت رأسها وتجنبت عيناها الخضراوان عينيه:

ـ حسناً، لأني كنت غبية. من الآن وصاعداً سآخذ حماماً سريعاً أو أضع منبهاً.

ـ أفترض أن لا جدوى من دعوتك للعودة إلى وايناموا؟

ـ لا.

وهزت كتفيها قليلاً قبل أن تردف: «صدقني، النوم بهذه الطريقة أفزعني ولن أكرر التجربة مجدداً».

بدت ضعيفة للغاية بحيث ودّ لو يعيدها إلى وايناموا ويبقيها إلى جانبه. لن ينسى منظرها في الحوض، عاجزة عن الوقوف، عاجزة حتى عن التفكير. لو تأخر بضع دقائق لغرقت على الأرجح.

شعر بالإحباط لأنه أدرك أنه لا يستطيع أن يجبرها على إطاعة أوامره.

حضّر فنجانين من الشاي ووضعهما على الطاولة. قال بفظاظة وهو يجلس قبالتها: «الطالما كنت عنيدة كالتيس».

ضحكت سوريل ورفعت الفنجان الذي دفعه نحوها: «لا بد من تيس لمعرفة تيس آخر».

وشربت السائل من دون أن تنظر إليه، واستطاعت ألا تظهر انزعاجها من كمية السكر الكبيرة فيه.

قال وقد فهم رد فعلها جيداً: «أنهيه. لِمَ كنت متعبة إلى هذا الحد؟ ماذا كنت تفعلين؟».

أشاحت سوريل بوجهها عنه: «أنظف وأصلح الأعمال الخشبية في الحمام الرئيسي».

كانت تعي النظرة الرمادية الباردة التي استقرت عليها، تتأملها من فوق حافة فنجان الشاي. كانت لحظة غريبة حميمة، وقد زادتها حميمية البقعة السوداء على قميصه. فقالت بهدوء: «هل تريد وضع قميصك في آلة التجفيف؟».

ردّ بلا مبالاة: «لا، فهي تكاد تجف، ماذا يجري؟ أخبرتني بين أنك استعرت بعض مواد التنظيف منها، وأنك كنت تعملين بجد منذ سافرت. أتحاولين إثبات شيء ما يا سوريل؟».

تفحّصت أسفل فنجانها: «ولِمَ علي أن أفعل؟».

ردّ ببرود فيما نظرته المحرقة مستقرة على وجهها: «لا أعلم. ما هي خططك تحديداً؟».

نظرت إلى البعيد وقالت: «إذا قررت البقاء فأنا أفكر جدياً في تحويل بارينجا إلى مضافة راقية، تقدّم المنامة والفطور».

ضاقت عيناه حتى استحالتا إلى خطين فضيين وقال بنعومة: «تباً!».

ثم استند إلى الخلف في كرسيه وراقبها بتركيز: «ستحتاجين لإذن من

المجلس».

قالت باعتدال: «اتصلت بالمجلس اليوم. قال الرجل الذي تحدثت إليه إنه لا يتوقع أيّ مشاكل إلا إذا اعترض جيراني. هل ستعترض يا لوك؟».

www.elromancia.com

٧ ـ مجنون بها!

قال لوك بجفاف: «أحتاج لمزيد من المعلومات قبل أن آخذ قراراً. اشربي الشاي ثم تعالي لتناول العشاء معي في واينامو، حيث يمكنك أن تخبريني عن مشروعك».

لم يكن كلامه تهديداً... حتى أنه ابتسم لها ابتسامة باهتة وهو يدعوها... لكن سوريل لاحظت نبرة في صوته جعلتها ترتعش ترقباً. قد لا يتمكن من منعها من إقامة مضافة في بارينجا، إلا أنه يتمتع بنفوذ واسع في الشمال ويمكنه تأجيل العملية وجعلها أكثر كلفة بكثير.

لذا، وافقت بشيء من التحفظ: «حسناً، سأبدّل ملابسي وحسب».

رفع حاجبيه وهو يراقبها ثم قال: «تبدين جيدة».

وبعد لحظة صمت، أضاف بصوت أقسى: «فاتنة».

هل ظن أنها تخطط لإغوائه حتى يرضى بمشروعها؟ تملكها الاستياء فأحرق جلدها وأعاد إليها قوتها، فقالت برباطة جأش: «شكراً لك. هل استمتعت بحضور العرض الأول للفيلم؟».

ـ كثيراً. على فكرة، ماري ترسل إليك تحياتها.

ـ هذا لطف منها.

بدا صوتها رسمياً جداً، فشربت مزيداً من الشاي محاولة أن تجد ملاحظة خفيفة، إنما منمّقة. إلاّ أن دماغها أبى أن يعمل، فما كان منها إلا أن أنهت فنجان الشاي المحلى وهبّت واقفة.

سألها لوك وهو يقف بدوره: «كيف تشعرين؟».

اعترفت قائلة: «ضائعة قليلاً لكن لعل السبب في ذلك هو مرور ساعات على موعد عشائي المعتاد».

ـ فعلاً.

ـ في المرة المقبلة، أقفلي باب المنزل فقد دخلت بسهولة.

النبرة الخفية في صوته جعلت دقات قلبها تتسارع، وذكرتها باللحظات التي حملها فيها بين ذراعيه.

لم يظهر أيّ اهتمام بها باستثناء غضبه المستعر من حماقتها. قالت وهي تحاول اعتماد نبرة موضوعية: «يجب باغي أن يقوم بجولة مسائية بعد وجبته الأخيرة. ولو لم أترك الباب مفتوحاً لما تمكنت من الدخول».

ولغرقت...

صمت لوك قليلاً، مخفياً أفكاره خلف وجه هادىء. بعدئذ قال:

ـ سيارتك هنا؛ لذا، علمت أنك في المنزل. ولولو لم تجيبي لطرقت الباب بقوة حتى تفتحي. في المرة المقبلة عندما تقصدين المدينة اشتري باباً للهر، فترك الباب مفتوحاً غير آمن حتى هنا.

قالت بكآبة: «إذن، ما من مكان آمن بعد الآن؟».

فرّد بواقعية فظة: «لكن، لم يكن هناك مكان آمن يوماً».

كانت سوريل خائفة من مزيج الإثارة والتوقع في دمها أكثر من خوفها من أي مجرم. قرب لوك أحسّت بنفسها حيّة وكأنها أمضت حياتها السابقة تمشي في نومها.

ابقي هادئة، هذا ما قالته لنفسها، فهو لا يريد أن يرغب فيك وأنت لن تثيري غرائزه، لمجرد الرغبة في ذلك. لن تتمكني من التعامل معه.

* * *

في غرفة الجلوس الكبيرة في واينامو، انتظر حتى جلست قبل أن يتأملها

بنظرة حادة: «أترغبين ببعض العصير؟ لدينا ليمون طبيعي».

ـ أود القليل منه، شكراً لك.

قدم لها كأساً من العصير الذي حمل رائحة الصيف، قبل أن يسكب لنفسه كأساً أخرى. جلس قبالتها في كرسي واسع: «والآن، أخبريني لما قررت العمل في مجال الضيافة».

ابتلعت السائل البارد ببطء: «يجب أن أعمل. أنا أحب التسلية كما أجيد الطبخ».

ـ هذا تغيير كبير عن الحياة الراقية.

ـ الحياة الراقية كما في رعاية أبي؟

لم تحاول إخفاء النبرة الساخرة في كلماتها. وأشار بنبرة محايدة: «أنت ابنة بارّة تتمتعين بحسّ المسؤولية».

هزّت كتفيها وردّت: «كان بحاجة إليّ».

ـ أكبر فيك رعايتك له، لكني ما زلت لا أفهم لما تريدين الاستقرار كصاحبة نزل. لمَ لا تعودين إلى عرض الأزياء؟

قالت بخفة: «عندما تخرج من هذا الميدان، فمن الصعب أن تعود إليه، لاسيّما في مثل سني. ثمة الكثير من الفتيات الرائعات بسن السادسة عشرة والسابعة عشرة اللواتي لا يحتجن للكثير من العناية ليبدين خلاّبات».

صرخة خشنة تعالت في الخارج فأجفلتها. وقالت بضحكة صغيرة:

ـ ماذا...؟ آه، بيكاكو. كنت قد نسيت الضجة التي يمكن أن يحدثها، هذه الطيور لا تزال تجفلني.

قال لوك مفكراً، رغم أنّ نظرته كانت حادة: «إذن، فقد تخليت عن عرض الأزياء كلياً. لا بدّ أن التخلي عن الشهرة والنجاح أمر صعب».

لم تستطع أن تشرح له قرارها: «في المستشفى، لم تكن حالة أبي تتحسن. كنت أقنعه بمتابعة العلاج عندما أكون موجودة. لكن حين أتركه، كان يرفض

القيام بأي شيء. كما أني لم أقدم على تضحية عظيمة، فعرض الأزياء لم يكن خياري الفعلي كمهنة».

رفع حاجبين أسودين في حركة سخرية وعدم تصديق في آن:

ـ هذا ما قلته من قبل، لمَ مارست هذه المهنة ما دمت لا تحبينها؟

هبّت واقفة واتجهت إلى النافذة. بالرغم من أن النهار كان غائماً ورطباً إلا أن السماء صفت لتظهر قمراً جديداً، عقد من الفضة في سماء مخملية انعكس ضوءٌ ناعماً على مياه النهر. قالت: «عندما كنت في الثالثة عشرة من عمري بدأت أكبر. وفي غضون ستة أشهر، تحولت من فتاة صغيرة نحيلة ذات شعر أحمر إلى فتاة طويلة ونحيلة ذات شعر أحمر، بطول يفوق طول كل من هم في مثل سني. كان الكل يزعجني من دون رحمة حتى تابعت دروس عرض الأزياء واشتركت في المسابقة. وفجأة، أصبح من الرائع أن أكون طويلة القامة وأن يكون شعري أحمر؛ بدأت عدسات المصورين تلاحقني والمديح ينهال عليّ، وصار مرحباً بي أينما حللت».

قال بتشنج: «كان مرحباً بك هنا».

ـ كتابع لسيتيا طبعاً، نعم.

تابعت وهي تختار كلماتها بعناية: «كان الأمر مسكراً، وسأكذب إن قلت إني لم أستمتع بالأمر، لكني ما لبثت أن اكتشفت أنّ عرض الأزياء بحد ذاته لا يكفي. أحببت جزءً من العمل... فالعمل مع أناس مبدعين أغناني للغاية... لكني تحمّلت ما تبقّى رغماً عني».

قال لوك بهدوء: «لكن المدخول كان جيداً ويصعب التخلي عنه؟».

رمقته بنظرة جانبية وقالت بصوت مخنوق: «نعم، هذا سبب آخر».

تأملتها عينان لامعتان بتقييم بارد: «تبدين ضعيفة بعض الشيء. تعالي واجلسي مجدداً».

أطاعته سوريل وهي تتساءل عما جعلها تبوح له بكل هذا.

ـ إذن، لطالما اعتبرت نفسك دخيلة.

رفعت رأسها بسرعة، إذ أدهشها نفاذ بصيرته. هزّت رأسها وغطّى شعرها وجهها فاختبأت خلفه: «أفترض ذلك، علماً أني لم أعبّر عن ذلك حرفياً. في بادىء الأمر، لكل ولد أم. كنا نتنقل كثيراً، لذا، كنت دوماً التلميذة الجديدة في المدرسة، ثم تحولت إلى الفتاة الغريبة التي تفوق رفاقها طولاً».

أنهى كلامها بلطف: «وأخيراً، أصبحت المرأة التي لا تمسّ والتي تبتسم على صفحات المجلات».

أومأت برأسها: «لا تظن أني غارقة في الاشفاق على ذاتي، لأني لست كذلك. كنت محظوظة أكثر من معظم اللواتي في مثل سني، ولست نادمة على أيّ من هذا».

ـ لكن؟

زمّت شفتيها وتجهمت: «أشعر بأني لا أعرف من أنا، وإلى أين أنتمي».

ـ إذن، فقد عدت لتكتشفي هويتك وانتماءك؟

هذا السؤال الساخر أشعل طبعها: «لا تتهمني بما لم أقله. من السهل عليك أن تهزأ مني فلطالما عرفت من أنت... وريث واينامو، كما أنك من سلالة هاردكاسل».

قال وقد أضحت عيناه أقسى وهما تتأملان وجهها: «لدينا تجارب مشتركة، والدتانا هجرتانا...».

أصدرت غريزياً صوتاً يرفض كلامه لكنه تابع بقساوة:

ـ الموت بالنسبة لطفل هو تخلٍ أيضاً. كما كان من الصعب إرضاء والدينا.

ـ ماذا تعني؟

ـ كان والدي مولعاً بالنساء. أما والدك فلم يكن قادراً... أو لم يشأ... أن يؤمن لك نوعاً من الاستقرار أو الانتماء.

انفجرت غاضبة، رافضة أن تتقبل مقارنته الهادئة: «لقد بذل قصارى جهده من أجلي».

فقال لوك بعناد: «عندما لا يتعارض الأمر مع تطلعاته. ورّط أبي نفسه ليرضي زوجاته، لكنهن تخلين عنه».

ـ لذا، أنت لا تثق بالنساء.

اشتد فكه: «هل تعتقدين أنك إذا أحببت شخصاً ما فسيتخلى عنك؟».

ـ بالطبع لا.

وهزت كتفيها لتخفي رعشة مزعجة. إن كان لا يثق بذوق أبيه في النساء، فهو لا يثق بها إذن. فسوريل تتميز بالقامة نفسها وبالشعر الأحمر نفسه كالمرأة التي أطلقت عليها المنطقة اسم «زوجة الأب الشريرة». كانت شيري هاردكاسل أقصر منها، لكن التشابه السطحي مذهل. وقف وقال: «لا بد أن العشاء جاهز...».

وخلال الوجبة الممتازة، تحدثا عن الكتب والموسيقى والبرامج التلفزيونية. وفيما هما يتناولان الطعام، فاجأهما طرق على الباب. نظر لوك عابساً إلى الباب وقال: «ادخل».

قالت مدبرة المنزل: «آسفة لوك، لكن الآنسة أونيل اتصلت بك، وهي تقول إن الأمر مهم».

ـ شكراً لك.

وانتظر حتى أغلقت بين الباب قبل أن يسأل: «هل تمانعين إن أجبت على هذا الاتصال؟».

ـ بالطبع لا.

راقبته سوريل قبل أن تجبر نفسها على تناول ملعقة من الفاصوليا وقطعة صغيرة من اللحم... الذي بدا لها عديم المذاق الآن بعد أن كان طرياً وشهياً.

من حسن الحظ أنّ ماري اتصلت، لأن سوريل وقعت في الفخ الذي نصبته

بنفسها.

نبّهها ذكاء لوك الحاد ومعرفته الواسعة، فنسيت المرأة التي لا تزال جزءً هاماً من حياته.

تملكها الرعب حين أدركت للمرة الأولى كم تشبه أباها، وكم تكاد تفقد كل ما فقده... احترام الذات، الاستقامة، راحة البال... في تعلقها المتهور والخطر بشيء لن تتمكن من الحصول عليه أبداً.

وفكرت بيأس في أنها ليست كوالدها، فهي تعرف متى ينبغي عليها أن تنسحب.

في الحال!

لم يغب طويلاً، وبالرغم من أن تعابيره بقيت غير مقروءة إلا أن سوريل استشفّت غضباً دفيناً خلف عزلته. قال بهدوء: «آسف».

ـ لا بأس.

قطعت سوريل شيئاً من اللحم ومضغته بنشاط. هل تتصل به ماري كل مساء؟

هذا الإحساس البغيض ليس شعوراً بالغيرة. فالغيرة تعني بعض الحقوق السابقة، وهي ليس لديها أي حقوق.

وأخيراً، انتهى العشاء وشربت كوباً من الشاي قبل أن تتثاءب. قالت وهي تبتسم أكثر ابتساماتها سحراً: «حان وقت رحيلي. أعلم أننا لم نناقش مشاريعي بعد، لكني أشعر بتعب شديد».

وقف لوك على الفور، فيما راحت عيناه تتأملانها وقال بتشنج:

ـ نعم، النوم باكراً سيفيدك الليلة.

كان القمر مشعاً في الخارج. حين صعدا إلى سيارة لوك، جلست سوريل صامتة، تراقب حركات يديه الخبيرتين على عجلة القيادة.

وعندما وصلا إلى الجسر أوقف السيارة وسألها: «هل شعرت بهذا؟».

ـ رعدة خفيفة؟ هل من خطب في السيارة؟

بعد أن أمسك المشعل، فتح الباب وترجل: «لا شيء على الأرجح».

خرجت سوريل من جهتها: «إن لم يكن الخطب في السيارة، فما الأمر؟».

ـ هذا ما أريد أن أعرفه.

وجّه لوك الضوء نحو الجسر. كان الماء الدافىء محملاً بروائح الصيف...

دارت حول السيارة لتنضم إليه فيما كان يحرّك الضوء على حافة الجسر الخشبية: «هل المشكلة في الجسر؟».

وتمنت في سرّها أن يأتي الجواب نفياً. قل لي إن الجسر لا خطب فيه...

قال وهو يعود أدراجه: «لا أرى شيئاً. لعله مجرد حجر في غير مكانه».

أومأت برأسها، آملة أن يكون محقاً. لا بدّ أن إصلاح الجسر يعني دفع الكثير من المال... مال لا تملكه. قال لوك: «سأعاينه غداً صباحاً».

كوني حازمة، فقد اتخذت قرارك وعليك الالتزام به:

ـ لا حاجة لذلك... يمكنني أن أفعل ذلك بنفسي.

بدا متسلياً وهو يسألها: «هل تعرفين شيئاً عن الجسور؟».

ردّت وهي تصعد مجدداً في السيارة: «يمكنني أن أعرف ما إذا كان ثمة خطب فيه».

انضم إليها ورمى المشعل على المقعد الخلفي:

ـ الاستقلالية جيدة، لكن التحقق من الجسر لن يتطلب مني الكثير من الوقت.

وفيما كان ينطلق بالسيارة، عضت سوريل على شفتها وراحت تتأمل الطريق. إنه محق فعلاً، فما الذي تعرفه عن الجسور؟

أمام المنزل، لفهما عطر آلاف أزهار الليمون. سألها لوك: «هل الباب الخلفي مقفل؟».

ـ نعم، تأكدت من ذلك قبل أن نغادر.

وعندما مدّ يده ليأخذ منها المفتاح، قالت بخفة: «يمكنني أن أفتح بابي».

تراجع إلى الخلف بانحناءة ساخرة، فأدخلت المفتاح وفتحت الباب ثم أضاءت النور قبل أن تلتفت إليه.

ـ شكراً لك على الأمسية اللطيفة.

قالت هذا بنبرة حاولت أن تجعلها رسمية وهادئة فيما راحت تحدق إلى عنقه. كانت لتتجاوز هذه التجربة لو لم ترفع نظرها إلى الأعلى.

أظهر الضوء وجهاً داكناً وملفتاً، مصمماً وخشناً. همست سوريل: «لا».

لكنها لم تتحرك. لم تستطع أن تفعل.

ـ لم لا؟

أمسك بذقنها ورفع وجهها ليصبح مكشوفاً لنظرته. كادت تصرخ من حدة عينيه، ومن المشاعر المشتعلة، الجارفة في أعماقهما.

قالت بكلمات رفضت أن تخرج بسهولة: «أنا لا أعتدي على ما لا يخصني».

تماماً كما قالت ماري منذ سنوات خلت.

ـ لم أقطع أيّ وعد لأحد.

تكلم وكأن الأمر غير مهم، وكأنه لا يستطيع أن يفكر في شيء سوى الجوع الذي يجمعهما برباط لا ينفصم.

ـ وما من أحد في حياتك.

لم يكن ما قاله سؤالاً: «لا».

دنا منها فطارت الكلمة ومعها كل الوسائل التي خطرت في بالها لتقنع نفسها بأنها لا تحبه.

لأنّ هذا ليس هوساً، أو إدماناً يمكنها أن تقاومه.

لقد تعلمت أن تحب لوك حين كانت فتية للغاية لتعرف معنى الحب وقبل أن تفهم قوة الهوى.

عندما عانقها، اكتشفت أن الرغبة تضرب كالزلزال، شديدة في قوتها، فتغيّر كل شيء.

إنها كوالدها، لن تحب سوى مرة واحدة.

هنا، بين ذراعيّ لوك منزلها الحقيقي.

رفع رأسه وقال بصوت أجش: «قولي لي الآن إن كنت لا تزالين تشعرين بالضعف».

ـ لا.

شكوكها، مخاوفها، الأسباب التي تجعلها ترفض هذا الحب الذي لا أمل فيه، لا تزال تتردد في دماغها. لكن، وبالرغم من أنها كانت تعلم أنها تعرّض نفسها لجرح في قلبها إلاّ أنها قررت استغلال اللحظة.

دخلا من الباب وأقفله خلفهما. أحست بالأمان قربه، فأدارت وجهها نحو عنقه، تتنشق عطره الخفيف الذي لا مثيل له.

تخبّط قلبه في صدره، وتسارعت دقاته عندما لمست بشرته بخفة. همست اسمه بصوت لم تعرفه... بطيء، أجش... فيما عادت أحلامها القديمة تعذّبها.

الدفء من جسد لوك القريب ومن القوة اللامبالية التي ساندتها شكّل عقدة في معدتها، وتسارع في شرايينها. ومن دون تردد، أحنى رأسه وعانقها بعنف، فتسارع نبضها. رفعت سوريل عينيها إليه ونظرت من بين أهدابها إلى وجه لوك القاسي والخطر.

وللحظة، خانها قلبها لكن الحذر تبخّر بفعل عمق عينيه الزرقاوين. رفعت يدها وتبعت رسم وجهه ثم ابتسمت. تلك الابتسامة المثيرة، المغرية رفعت ضغط لوك إلى أقصى حدّ. الليلة التي أمضتها قربه صدّعت دفاعاته.

ومنذ ذاك الحين، وجد نفسه يستمع إلى ضحكتها، إلى تلك البحة المغرية في

www.elromancia.com

صوتها، يراقب الشعر الأحمر الكث، والبشرة العاجية اللامعة، والوعد المشع في ابتسامتها. كمال قوامها عشعش في دماغه حتى قضى الجوع على أيّ فكرة منطقية فيه، كالغيوم التي تسبق الإعصار.

لمَ سوريل؟ لقد عرف نساءً جميلات أخريات، ومعظمهن ما زلن صديقاته. لا يمكنه أن يصبح صديق سوريل، كما خطر له فيما كان يراقبها ووجهها الرائع مرفوع إليه باستسلام. لعله ابن أبيه فعلاً... مجنون بهذه المرأة.

لكنه لن يسلم كلياً. وبالرغم من أنها تعرف كيف تؤثر طلعتها ومظهرها وجسدها في الرجال إلا أنها لن تعلم أبداً أنها المرأة الوحيدة التي تستطيع أن تفقده رباطة جأشه.

كان يخشى سلطتها عليه، وكره نفسه لعدم تمكنه من تجاهلها؛ وحتى دقائق خلت، كان واثقاً من أنه قادر على مقاومتها.

لكن، تباً للضوابط ولكل المبادىء التي عاش من أجلها وعلى أساسها. فهو يريد سوريل كما يريد أن يتنفس. لا... بل يريدها أكثر من الأنفاس.

وهذه المرة، لن يوقفه شيء ولا حتى هزيمته الشخصية. سألته على عجل:

ـ بما تفكّر؟

زمّ فمه ثم استرخى في ابتسامة ساخرة: «أريد نسيان كل شيء».

وتيرة صوته سرّعت نبضاتها وحركت مشاعرها. قالت بتنهيدة: «أنت جميل جداً».

ضحك ورفع وجهها إليه ثم قال: «هذه كلماتي، جميلة أكثر من قدرتي على الاحتمال. جميلة بما يكفي لإرباك عقل أيّ رجل، لشغل أحلامه ليلاً ونهاراً. أكثر جمالاً من أيّ وهم...».

وللحظة طويلة غريبة نظر في عينيها. انقبضت معدتها. كان يطالبها باستسلام كامل، إلا أنها لم تقرأ سوى الرغبة في بريق عينيه الرماديتين الحديديتين.

لا يهم، لا يهم. فهي تحبه مهما كان شعوره نحوها. عندما خرج اسمه من بين شفتيها بتنهيدة، سمعت مشاعرها فيه ممزوجة بالتوق الذي عايشها طويلاً.

وعندئذ، عانقها فاكتشف سوريل مجدداً الهوى الحقيقي.

شعرت بالنار تحرق أصابعها وهي تحيط وجهه بيديها. هذه النار البدائية انتقلت منها إليه، فضمها إليه أكثر مثيراً غرائزها الأنثوية كلها.

ابتسمت واستسلمت لعناقه.

شدّ ذراعيه أكثر، فشعرت للمرة الأولى بقوته كلها، لكنه ما لبث أن أرخاها وقال: «أنا آسف، لم أشأ أن أؤذيك».

ـ أعلم ذلك.

تلفظت باسمه مجدداً، غير قادرة على سماع صوتها بسبب صدى دقات قلبها المتسارعة في أذنيها.

ارتجفت الكلمات على شفتيها، لكنها عادت وكبحتها، فهو لا يريد أن يعلم أنها تحبه. وفجأة همست: «أرجوك».

فتراجع قليلاً، انحبست أنفاس سوريل في صدرها وحدّقت إلى عينيه، عينين زرقاوين كنجوم في السماء. وما لبثت أن أدركت أنها تبكي. حاولت فزعة أن توقف الدموع الصامتة، لكنها استمرت في الانهمار.

ـ سوريل، ما الأمر؟

ـ لا شيء.

ضمّها إلى صدره وقال: «إذن، ماذا يجري؟».

همست وهي تمسح الدموع بقفا يدها: «لا أعلم».

لم تستطع أن تخبره أنها تحبه كما لم تستطع أن تعترف بأنه يكاد يجردها من روحها ويستعبدها.

قال وهو يبعد شعرها الحريري عن وجهها: «أنت متعبة، فاخلدي إلى النوم».

أرادت أن تبقى مستيقظة، لكنها لم تفلح. فما إن غادر حتى استسلمت لسلطان النوم.

٨ ـ التقيا كحبيبين

صحت سوريل على نور الصباح يداعب وجهها وعلى باغي المزعج ينادي من المدخل.

ـ حسناً، حسناً، أعطني بعض الوقت.

تمطت بكسل ثم استدارت وفتحت عينيها. عندئذ، ارتعشت حتى العظم. الليلة الماضية قررت أن تحمي نفسها من لوك... ولكن عندما تذكرت ما كاد يحصل شعرت بالخوف.

المشكلة أنها منذ أن عادت وهي في مواجهة عاطفية متشنجة مع لوك. لعل الوقوع في حبه في المراهقة أمر لا مفر منه ولكن عليها أن تصمد الآن في وجهه فهي في سن الثامنة والعشرين ولم تعد تلك المراهقة الصغيرة ولكن الخوف من أن تنهار دفاعاتها شيئاً فشيئاً.. ماذا لو سقطت في التجربة؟ لن تحصد غير الندم!

تململت في الفراش ودفنت وجهها في الوسادة. كرهت حساسيتها التي تكاد تجرها إلى عالم من نار. هل هذا ما شعر به والدها في مواجهة حاجته للمقامرة؟ همست: «أبي، لماذا من السهل أن ينجرّ الإنسان خلف أهوائه؟».

لسوء الحظ، لم يكن بإمكانها البقاء في السرير أكثر... فاستقامت وحدّقت إلى الغرفة من حولها، وتملكتها رغبة جبانة في الهرب إلى أقاصي الأرض، فنزلت من السرير وارتدت ثوبها.

لا، لن تفرّ مهما بدت الفكرة مغرية. هذا ردّ فعل والدها؛ وإذا ما اتبعت مثاله ومشت على خطاه فقد لا تتمكّن أبداً من التغلب على شعورها نحوه.

www.elromancia.com

مواجهته والتعامل معه هي الطريقة الوحيدة لهزم أحاسيسها الغادرة.

فضلاً عن ذلك، أرادتها سيتيا أن تبقى في المنزل ستة أشهر، وستفعل ذلك من أجل جدّتها مهما كلّف الأمر.

بعد أن رتبت السرير وغرفة الجلوس، توجهت إلى غرفة النوم الرئيسية حيث شرعت في حفّ حاشيات النوافذ حتى سمعت صوت سيارة لوك. توقّفت سيارة لوك على الجهة الأخرى من الجسر.

عضّت على شفتها، وقد تسارعت دقات قلبها بإثارة مخيفة، لكنها أكملت عملها. وبعد حوالى عشر دقائق، قرع الباب الأمامي.

أخذت سوريل نفساً عميقاً مرتجفاً ونزلت للقائه.

طويل، أسمر، حازم... قال باقتضاب:

ـ يبدو أن الفيضان الأخير ألحق الضرر بالجسر فلم يعد متيناً.

وللحظة، لم تجد ما تقوله: «فهمت».

ـ سأتصل بشركة في وانغاريه لإصلاحه.

ـ لا... سأفعل بنفسي.

قال من بين أسنانه: «أعلم يا سوريل أنك قادرة تماماً على القيام بذلك، لكني أعرف هذا الرجل، فقد بنى لي عدداً من الجسور وأصلح عدداً آخر. إذا ما اتصلت به أنا فسيعطيك الأولوية. ويجب أن يتم إصلاح الجسر سريعاً... فهو خطر. كما عليك أن تضعي إشارة عند مدخله لئلا يمرّ عليه أي شخص آخر».

قالت بهدوء: «قبل أن أتخذ أيّ قرار يجب أن أكوّن فكرة عن الكلفة».

ـ هل هذه مشكلة؟

وتأمل وجهها بعينين ضيقتين وحادتين، فتحوّل فمها إلى خط عنيد وردّت:

ـ أنا لست غبية. لن أعطي أي شركة حرية التصرف من دون أن تقوم بعملية تخمين أولاً.

ساد الصمت بينهما... صمت ثقيل، مليء بكلام لم يقال. أحسّت سوريل بذهن لوك يعمل سريعاً، وفكّرت في أنه كان عليها أن تلتزم الصمت. لا يمكن أن يكون قد سمع شيئاً عن والدها... إذ عملت جاهدة لتمنع الشائعات.

قال بصوت لسع بشرتها كالسوط: «أنت لم تبذّري كل المال الذي كسبته من عرض هذا الجسد الرائع، أليس كذلك؟».

كادت تختنق. ونظرت إلى عينيه الباردتين وقد تعطل دماغها كلياً فيما راحت ترتجف من الداخل. سأل بتصميم: «هل اختفى المال كله يا سوريل؟».

تجنبت الرد عن سؤاله إذ قالت: «الكلام عن المال تصرّف سوقي، لا سيّما مالُ الغير. هل لديك فكرة كم ستكلفني التصليحات؟».

صمت للحظة ثم أعطاها رقماً.

تعاظمت العقدة في معدتها لكنها جالدت لتقابل نظرته القاسية بنظرة صافية وقالت: «حسناً».

شيء ما في طريقة كلامها، لعلها نبرة الفزع، حوّل شكوك لوك إلى يقين. أدركت أنه توصّل إلى استنتاجاته حتى قبل أن يسألها: «علاما أنفقت المال يا سوريل؟ الكوكايين؟ أعتقد أنها المخدرات المفضلة بين عارضات الأزياء في أيامنا هذه».

عصف الاشمئزاز بعينيها فيما ردّت بدقة باردة:

ـ كنت تقرأ الكثير من الصحف الرخيصة. أنا لست مدمنة... ولم أكن يوماً.

ـ إذن، كيف أنفقته؟

حدّقت إليه مباشرة وقد ارتسم التحدي الجلي على ملامح وجهها الجميل: «سوء استثمار».

اعتاد لوك أن يتبع حدسه الذي لم يخذله يوماً. إنها تكذب.

أمسك ذقنها ورفع وجهها مجبراً إياها على مواجهته. فتعمدت أن ترفع أهدابها لتُظهر عينين خضراوين قد تتحولان من الهوى الجامح إلى اللامبالاة الباردة...

أدرك أنّ قناعها الجميل والمثير يخفي خلفه قلباً كاذباً.

هل هي، على غرار زوجة أبيه، لا ترى في مالك وايناموسوى مصدرٍ للمال؟ هل عادت إلى بارينجا لترى ما إذا كان ذاك السحر القديم، العنيف لا يزال حياً؟

كبح الغضب العارم الذي تملّكه وأجبر نفسه على التفكير من دون انفعال. هذا منطقي. إذا ما خسرت أموالها ولم تتمكن من العودة إلى مهنتها بعد السنوات التي أمضتها في العناية بوالدها، فلما لا تبحث عن طريقة لتستعيد أسلوب الحياة ذاك؟ رجل ثري...

وإذا ما كان ما تظهره من مشاعر تجاهه مجرد خداع وتمثيل، فمن حسن الحظ أنه اكتشف الأمر سريعاً، قبل وقوع أي ضرر.

ترك ذقنها وكأن البشرة الحريرية أحرقت أصابعه، وراح يتأملها بعينين باردتين وحادتين كنصل السيف.

- القمار يا سوريل؟

- اذهب إلى الجحيم.

حافظت على ملامحها باردة وجامدة لكنه لاحظ الصدمة على وجهها وفي صوتها.

نعم، لقد تساءلت عما إذا كان تحريك الجمرات القديمة سيطلق ناراً جديدة، ناراً كافية لتبقيها دافئة وآمنة بقية حياتها.

ابتسم ابتسامة باردة كالرياح القطبية وقال لها: «لقد راهنت على الرجل الخطأ. تعلمت الدرس الذي لم يتعلمه أبي أبداً... حذار النساء الجميلات

حين يتوددن إليك، فلديهن دوماً غايات، وهذه الغايات هي المال عادة».

ولسبب ما، بدا وكأنها ارتاحت تقريباً، لكن هذا التعبير ما لبث أن تغير ليحل محله الارتياب: «لا يمكنك أن تظن أن النساء ينجذبن نحوك بسبب مالك فقط».

قال بازدراء: «المظهر مهم في الحب واللهو، لكنه غير مهم عندما تتعلق المسألة بإفراغ الجيوب وسلب المال. كانت زوجة أبي لتتزوجه حتى وإن كان أكثر الرجال بشاعة على وجه الأرض».

سألته سوريل وقد تملكها الغضب فجأة: «أنّى لك أن تعلم؟ لا يمكنك أن تفهم الحقيقة في زواجهما».

كانت عيناه باردتين بحيث ارتجفت: «أفهم أنها حاولت إغوائي خلال زواجهما».

حدّقت إليه سوريل مروّعة. رأت الحقيقة في تعبيره القاسي وسمعتها في صوته الثابت. قال: «نعم، أعرف ما هو الجشع لدى المرأة... واليأس. أخبريني، لما استسلمت لعناقي في الأمس وبادلتني إياه؟».

ردّت وهي تشعر بالخجل والإذلال: «لم يكن هدفي ملء جيوبي، كما لم أكن يائسة، صدقني».

- لماذا إذن؟

أنزلت يديها إلى جانبيها واقتربت منه خطوة: «لأشبع حاجة».

صرخت هذه الكلمات لتخفي الألم الذي مزقّها ثم أضافت:

- حاجة عمرها عشر سنوات.

حاولت سوريل إبعاده عنها، لكن النار التي اجتاحتها تغلّبت على أيّ قرار حكيم اتخذته وعلى الوعود التي قطعتها، وبادلته العناق.

وبالرغم من أنها علمت أن نية لوك كانت إهانتها، إلا أن عناقهما تغيّر بطريقة ما. تعانقا كحبيبين افترقا منذ زمن بعيد... كحبيبين يدركان أنهما لن

www.elromancia.com

يلتقيا مجدداً . . .

تجمّعت الدموع في مقلتيها واعتصرت قلبها لأنهما يودعان بعضهما البعض.

أطلق سراحها ببطء، فرأت شيئاً من الاحمرار يعلو وجنتيه وأدركت أنه غاضب من نفسه لأنه استسلم لإغرائها.

جرّها العذاب إلى عالم من الظلمة، لكنها استجمعت ما تبقّى لديها من قوة لترفع ذقنها بغطرسة وتتراجع. قالت بقدر ما استطاعت من حزم: «الوداع يا لوك. أرجو منك أن تضع اسم شركة صيانة الجسور في صندوق البريد».

استدار على عقبيه وخرج. وقفت هناك ترتجف، ويداها مسبلتان إلى جانبيها، تكافح رغبتها في العدو خلفه لتخبره أنه مخطىء وأنها تحبه وأن السنوات التي مضت لم تكن كافية لقطع الرباط الذي يجمعهما.

لكنه لن يصدّقها. ورغم الألم الذي تشعر به لأنه يعتبرها جشعة ووصولية على غرار زوجة أبيه إلا أنها فهمت السبب الآن. كان فتياً، غير واثق من نفسه ويحب أباه، وقد اضطر لمواجهة زوجة أبيه الجديدة. . . هذا عذاب من شأنه أن يؤثر فيه طوال حياته.

صوت محرك سيارتها نشلها من حالة الشلل والذهول التي كانت غارقة فيها. ركضت إلى النافذة فرأتها تتجه نحو المنزل، بالطبع. . . لقد تركت المفاتيح فيها. وراقبت بعينين جافتين لوك وهو يقود السيارة ببطء فوق الجسر ليركنها عند المدخل.

لم يلتفت. رأته يرمي المفاتيح في صندوق البريد ويصعد إلى سيارته الخاصة وينطلق بعيداً.

قالت لنفسها بعنف: «اخرجي واجلبي المفاتيح، يمكنك أن تبكي لاحقاً».

بدا الجسر ثابتاً حين مشت فوقه، لذا فهو آمن بما يكفي للمشاة. إنما إذا كانت تنوي أن تفتح مضافة في بارينجا، فعليها أن تجد المال اللازم لإجراء

التصليحات، إذ أن الضيوف لن يرضوا بحمل أمتعتهم من الطريق إلى المنزل.

عادت إلى غرفة النوم الرئيسية واستأنفت عملها.

كان الوقت متأخراً حين أوت إلى فراشها. كانت منهكة إلاّ أنها استلقت لساعات فيما الصور الحية تمر في عقلها المعذب.

وفي الصباح المثقل بعطر الشمس والمطر والخضرة، اجتازت أرض لوك وتوجهت إلى الشاطىء حيث حاولت أن تنسى كل شيء بالهرولة على الرمال حتى مصب النهر. لكنها لم تفلح. . . كما لم تفعل السنوات العشر التي أمضتها بعيداً.

قالت لباغي بحزن: يبدو أن والدي أورثني شخصيته المدمنة. لا أيها الهر الغبي، لا تقترب من النهر فإذا ما سقطت فيه جرفك إلى البحر.

أطاع الهر سوريل للمرة الأولى وعادا معاً إلى المنزل. وعندما وصلا إلى المدخل، تفقدت سوريل صندوق البريد فوجدت مغلفاً يحمل اسمها بخط يد لوك الواضح.

تسارعت دقات قلبها، وفتحت المغلف لتجد اسم شركة بناء الجسور ورقم هاتفها. ولم تتفاجأ عندما اتصلت لاحقاً وأخبرتها المرأة التي أجابت على اتصالها أنها حددت لها موعداً للمعاينة والتخمين.

حضر المهندس بعد أيام، وبعد ليلة تمكنت فيها سوريل من أن تنام بضع ساعات. بدا فتياً وواثقاً من نفسه ومأخوذاً بعمله رغم أنها لاحظت التقدير في عينيه. وبعد أن دار حول الجسر حوالى الساعة، طرق باب المنزل.

سألته سوريل مخفية قلقها خلف ابتسامة: «كيف جرت الأمور؟».

ـ أخشى أنها ليست جيدة. رافقيني وألقي نظرة. . . يمكنني أن أشرح لك أفضل ميدانياً.

كان لوك محقاً. . . فالفيضان أثّر في دعائم الجسر وخلخلها.

وضرب أحد الألواح بقدمه وأضاف: «أرأيت؟ إنه يكاد يتحطم».

- ماذا عن الدعائم الأفقية؟

ابتسم لها وقال: «ما من مشكلة هنا».

- الحمد لله. هل يمكنك أن تعطيني تقديراً قريباً للكلفة؟

حذّرها قائلاً: «سيكون التخمين تقريبياً وسأرسل لك تخميناً أكثر دقة».

وذكر رقماً أقل بقليل من ذاك الذي خمّنه لوك، لكنه لم يكن بعيداً كثيراً بحيث لا تشعر باليأس.

وراحت تتساءل كيف ستتمكن من إقناع أي مدير مصرف بإقراضها المال لتغطي الكلفة حين نظر المهندس خلفها وأومأ برأسه.

- مرحباً لوك، لم أسمع صوت سيارتك.

جمدت سوريل عندما سمعت صوت لوك العميق وهجر اللون وجهها، إلا أنها تمكنت من رسم ابتسامة على شفتيها قبل أن تلتفت إليه.

النظرة السريعة التي رمقته بها جعلتها تلاحظ أنه يبدو عابساً ومنهكاً بعض الشيء.

قال بعد أن تبادل التحية مع المهندس: «صباح الخير سوريل».

ابتسمت بعدم ارتياح، غير قادرة على أن تثق بصوتها.

نظر مجدداً إلى الرجل قربها: «هل أنهيت عملك؟».

التفت المهندس من أحدهما إلى الآخر، وقال: «نعم، سأرسل للسيدة مايتلاند تخميناً دقيقاً على الفور. كيف حال الجسر الجديد عندك يا لوك؟».

ردّ لوك بجفاف: «لا بأس. سأرافقك إلى سيارتك».

مدت سوريل يدها إلى المهندس وقالت بابتسامة أخرى، أكثر انفتاحاً هذه المرة: «شكراً جزيلاً لك».

وبعد أن تصافحا، عادت إلى بارينجا وهي تشعر ببرد شديد في داخلها ما جعلها تتساءل عما إذا كانت الشمس ستتمكن يوماً من تدفئتها مجدداً.

صرّت على أسنانها ورفعت ذقنها ثم صعدت السلالم. عليها أن تواجه

الواقع حتى وإن كان حب لوك حكماً مؤبداً صدر بحقها. لا فائدة من الشكوى للقمر والشمس والنجوم، فلوك لن يثق يوماً بامرأة جميلة. وأنّى لها أن تثبت له حبها؟

كان السلم الذي عثرت عليه في المرآب خلف المنزل مخلخلاً، لكنه الوحيد العالي بما يكفي. إلاّ أنها ندمت لأنها كانت في منتصف السلم حين طرق أحدهم الباب في الأسفل... طرقة تبعها صوت لوك العميق، ينادي: «سوريل!».

انتفضت وكادت توقع عدّة الطلاء. اهتزّ السلم تحتها بقوة ثم سكن.

- أنا هنا في الأعلى.

صعد السلالم بصمت، وعبس عندما رآها: «ماذا تفعلين على هذا الشيء المخلخل؟».

قالت له بتشنج، وهي تصعد إلى أعلى السلم حتى تتمكن من الوصول إلى السقف: «أدهن..».

سمعت شتيمة مخنوقة وهو يعبر الغرفة فوق السجادة المغطاة ويمسك بالسلم.

قال بغظاظة: «انزلي قبل أن تقعي».

- لا بأس.

ورمقته بنظرة فوجدت عينيه ضيقتين وكأنه قادر على قراءة أيّ فكرة تحدِ تمر بدماغها. وضربت السقف بفرشاة من الدهان الأبيض.

- لا تكوني غبية. كم غرفة تنوين أن تطلي؟

لم تعِ سوريل التشنّج الذي عقد معدتها، عقدة ازدادت حدة حين التفتت إلى الأسفل ورأت يديه القويتين والنحيلتين على السلم على بعد أنامل من ساقيها.

قالت على عجل: «هذه الغرفة والحمام المجاور كبداية».

نظر إليها باهتمام عابس: «هذا كثير».

سألت وهي تضرب السقف مجدداً بفرشاتها: «ماذا تعني؟».

ـ ما الذي يتسبب لك بهالات سوداء تحت عينيك؟

ـ رائحة الطلاء.

ووضعت الفرشاة في الدلو، وتحركت بسرعة فيما اهتز السلم يميناً ويساراً. ثبته وقال: «سأعيرك سلماً مناسباً».

ـ هذا لطف منك.

وابتسمت تلك الابتسامة التي ظهرت في آلاف الصور، الابتسامة الدرع الذي تخفي خلفها أفكارها وانفعالاتها. وأردفت: «إنما لا حاجة لذلك... قد يبدو هذا السلم مخلخلاً، لكنه قوي. وهو كبير بما يكفي لكي أطال السقف. أمضيت وقتاً طويلاً فوقه وأصبحنا نفهم بعضنا البعض».

كانت فخورة بصوتها إذ بدا طبيعياً جداً فسألته وهي تتابع عملها:

ـ هل قدمت لسبب معين؟

ردّ بإيجاز: «جئت أتأكد من أنك بخير».

ليس من المنطقي أن تشعر بالدفء في محيط قلبها. ابتلعت بريقها وقالت:

ـ أنا بخير، شكراً لك. كيف حالك؟

التمعت عيناه وهو يمسكها من خصرها وينزلها من دون جهد ظاهر.

ـ ماذا بحق...؟

وما إن حاولت أن تفتح فمها لتعترض حتى شدها إليه وأسكتها بعناق حاد هزّ أحشاءها. وجرف الجوع كل شيء باستثناء ذاك الشعور الغريب بالرضا.

وعندئذ، أفلتها وتراجع مبتعداً عنها.

حدّقت سوريل إلى عينين تحوّلتا من الرمادي المهدد إلى لون غيوم العاصفة الخطرة، وقد أخذت الدهشة منها كل مأخذ فيما انتفض قلبها. لم تجد أيّ أثر للرقة على ملامح وجهه، كما لم تجد ما يشبه الحب الذي تقبّلته في نفسها رغماً عنها.

انقبض قلبها وهي تسأله: «ما سبب هذا؟».

راقبها كما لو أنها العدوّ، وردّ بتكاسل: «لعله عقاب».

رفعت سوريل رأسها وقالت فيما بدت عيناها غاضبتين:

ـ ثمة كلمة تصف الرجل الذي يهوى إيذاء النساء.

جاء صوته رقيقاً ببرودة: «أعرفها. كنت أعاقب نفسي لأني كنت غبياً حين ظننت أنك أكثر من وجه جميل وجسد رائع».

هزّتها المشاعر، مزيج من الغضب والخوف والتوقّع المذلّ. قالت بوقاحة:

ـ ماذا تعرف عني لتحكم عليّ؟

تكلّم بسيطرة باردة، وهو ينظر إليها بعينين قاسيتين باردتين في وجه قاسٍ وبارد: «أعرف أني أريدك... لطالما أردتك منذ بلغت الثامنة عشرة».

ـ لهذا أقمت علاقة مع ماري أونيل.

أخفت ألمها خلف ابتسامة ساخرة. فقال بهدوء: «كنت مجرد طفلة طرية العود، وأنا في الخامسة والعشرين. آخر ما كنت تحتاجينه هو علاقة تنتهي بانفطار قلبك. أما ماري فما كانت لتدع قلبها يتورط، لذا وجدتها وسيلة إلهاء مرحباً بها».

علّقت سوريل على كلامه بأدب: «يا لنبلك!».

هزّ كتفيه: «لا علاقة للنبل بالمسألة... إنها محاولة لوقاية الذات. حينذاك، لم أكن قادراً على الالتزام بعلاقة ولم أشأ أن أؤذيك أكثر مما فعلت».

تحرّك الغضب في داخلها، لكنه امتزج بشيء من الارتياح لأنه رغب فيها. إنه منطقي كحاله دائماً، وقد اختار الطريقة الأبسط ليخرجهما من وضع لم تكن قادرة على معالجته.

وتابع بصوت فقد برودته: «لكنك لم تعودي في الثامنة عشرة، وأشك في أن تفطر أي علاقة بيننا قلبك. حتى وإن فعلت، فلعل الأمر يكون مفيداً لك... بعد أن حطمت الكثير من القلوب».

وأذهلها حين لفّ أصابعه حول رسغها، مريحاً إبهامه على شريان صغير ينبض بقوة، قبل أن يردف: «ما زلت ترغبين فيّ يا سوريل».

كان الإغراء يفوق قدرتها على الاحتمال. أرادت بشدة أن تنسى كل شيء إلا الحمى التي تسري في عروقها وفي جسدها. لكن لوك يقدّم لها عملة مزوّرة، حباً مزيفاً، ولم تجرؤ على القبول.

إن التورط مع لوك هو أغبى تصرّف قد تقدم عليه. فهو يرغب في جسدها، في حين أنها تحتاج أكثر بكثير. إنما أكثر ما تحتاجه هو إخراجه من عقلها ومن قلبها، وليس أن تجعله جزءاً لا يتجزأ منها أكثر مما هو عليه حالياً.

انجي بنفسك... الآن! هذا ما صرخت به غريزتها، لكن دماغها تعطّل.

عضت على شفتها، فضاقت عينا لوك حتى لم تعد ترى سوى خطين رماديين لامعين، وانزلقت يده من معصمها إلى إبطها ثم أدارها نحوه وشدّها إليه.

استجمعت سوريل ما تبقّى من إرادتها وصرخت: «لا!» قبل أن تتراجع وتتحرر من قبضته.

فسأل بصوت أجش: «لم لا؟».

ردّت بغضب: «لأني لا أتورط في علاقات لا معنى لها».

ـ لا معنى لها؟

كان صوته حيادياً، لكنه حمل نبرة خفية فجّة جعلت بدنها يقشعر.

أومأت برأسها وكررت: «لا معنى لها».

ابتلعت بريقها بعد أن أحسّت أن فمها وحنجرتها جافان. شعرت وكأنها تخطو على حافة هاوية لكنها تابعت تقول: «لا أريد أيّ علاقة. وما من جمرات قديمة أو نار. بل أشعر بالإهانة لأنك اعتقدت أني قد أكون... مهتمة باستئناف ما تركناه لأنني أقيم في المنزل المجاور، وهذا أمر مناسب. آخر ما أريده في حياتي هو التعقيدات... أريد الانتهاء من إعادة ترتيب بارينجا».

قال مفكراً فيما أضاء عينيه بريق أزرق من التسلية الساخرة:

ـ لعل كلمة مناسب هي آخر كلمة قد استخدمها لوصفك.

ـ كما أنني لست حرة.

أخبرته بهذا محاولة أن تبدو مقنعة بالرغم من الرعشات الصغيرة التي أحسست بها.

حاجبه المرفوع أبلغها برأيه بما قالته. قابلت نظرته المحجوبة بذقن عالٍ وشفتين مشدودتين، إنما لا بد أن يكون عديم الخبرة لئلا يقرأ الإشارات التي يرسلها جسدها الخائن. وهو صاحب خبرة واسعة بالتأكيد.

تشدّق قائلاً: «أخذنا علماً».

الابتسامة الساخرة أضفت قساوة على فمه فتباين مع عينيه اللامعتين:

ـ لا تستخدمي هذا السلم... سأرسل لك واحداً مناسباً.

واستدار على عقبيه، تاركاً إياها مشوشة، مضطربة. التفتت إلى رسغها متوقعة أن ترى بصمات أصابعه على بشرتها الحساسة. قالت لنفسها بغضب شديد قبل أن تصعد على السلم: «لا تكوني غبية! ماذا كان ينوي بالضبط؟».

علاقة عابرة من دون روابط؟ أهذا هو نوع علاقته مع ماري؟

ابتهاج عارم اكتسح كل خلية من خلايا جسمها، ابتهاج أخفى غثياناً تملكها. همست: «تباً! تباً، تباً، تباً!».

قالت سوريل لباغي المستلقي بضحكة أقرب إلى النحيب منها إلى الضحك: «الأمور جيدة بالنسبة إليك. فأنت تتغذى... أما بالنسبة إلى الحب، فالكل يعرف أن الهررة لا تهتم سوى بذاتها!».

لم يصل السلم الذي وعدها به لوك، وهذا ليس من عاداته. إلا أن سوريل لم تكن تنوي ملاحقة المسألة. انكبت على أعمال الطلاء، محاولة أن تطرده من عقلها عبر التفكير في إيجاد المال اللازم لإصلاح الجسر.

لقد وعدت نفسها بهذه الحياة وهذا المستقبل، وأيّ نوع من الأشخاص هي إن استسلمت بسهولة؟

وبعد درس الاحتمالات والإمكانات، اتخذت قرارها. فقالت لباغي المستغرق في النوم: «سأستخدم المال الذي كنت أخطط لإنفاقه على معيشتي لإصلاح الجسر، ثم أبحث عن عمل. سأتصل بوكالة في أوكلاند لأرى ما إذا كان لديهم أيّ عمل لي... فهذا أكثر إفادة. إذا لم يرغبوا في استخدامي فثمة وكالات سياحة هنا، ولا بدّ أن أجد عملاً يساعدني حتى أنهي التصليحات في بارينجا وأبدأ بإدارته».

الطرق على الباب الأمامي قاطع أحلامها، فصرخت: «إني قادمة».

واهتز السلم فتعثرت وطارت في الهواء لتقع إلى الخلف. أحست بالألم ثم فقدت الاحساس بما حولها.

٩ ـ هدنة مؤقتة

ـ سوريل! سوريل، هل تسمعينني؟

صوت رجل مثقل بالقلق راح يشق طريقه إلى رأسها. همست: «لوك؟».

ـ نعم. افتحي عينيك من أجلي.

أجفلت وهي تحاول فتح عينيها. ظهر وجهه القاسي والمصمم أمام عينيها، مرتجفاً في البدء. طرفت عينيها مرات عدة ثم توقفت. تأملت البشرة السمراء المشدودة على عظام قوية والعينين الحادتين والفم الجميل، وقد تملكتها الحيرة.

قال بصوت عميق امتزج بالارتياح: «حسناً؛ والآن اضغطي على يدي».

أسبلت أهدابها. يده؟ إنه يمسك بيدها. لفّت أصابعها حول أصابعه الطويلة، بعد أن بذلت جهداً لتركّز.

ـ اتركيها.

وانتظر حتى استرخت يدها ليسألها: «هل تشعرين بألم شديد في مكان ما من جسدك؟».

تذمرت بصوت خفيض: «عدا رأسي؟».

ـ نعم.

همست: «وركي وكتفي».

تفحص وركها وكتفها سريعاً ثم قال: «لا أظن أنك كسرت أياً منهما. لقد وقعت على هذه الجهة وأصبت برضوض ستؤلمك. والآن، سأنزل إلى الأسفل لأجلب وسادة. ابقي هادئة».

www.elromancia.com

عندما عاد، كان الألم في رأسها قد خفّ قليلاً، لكن الضوء لا يزال يؤلم عينيها.

رفع لوك رأسها برقة ووضع وسادة تحته: «هل تشعرين الآن بألم في عنقك؟».

- لا.

- حسناً، سأضع كمادة على جبينك. هل يمكنك أن تمسكيها؟

لا بدّ أنه أخذ مكعبات ثلج من الثلاجة ولفّها بمنشفة. البرودة على رأسها أشعرتها بشيء من الارتياح، فهمست: «هذا جيد».

- سأتصل بالمركز الطبي.

وارتمى على الهاتف الخلوي بطريقة جعلت سوريل تأسف على الشخص الموجود على الطرف الآخر.

أنهى كلامه قائلاً: «لقد وقعت وفقدت وعيها؛ لذا، عليها أن تخضع للمعاينة... حسناً، سأجلبها على الفور».

رفعت سوريل أهدابها لتراه يطلب رقماً آخر. قال من دون مقدمات فيما عيناه الداكنتان تتأملان سوريل: «بين، أحضري السيارة إلى بارينجا، واجلبي معك وسائد عدة ودلواً».

لا بد أن بين قالت شيئاً إذ قاطعها بصوت جليدي أثار انتباهها: «تعالي وحسب في أسرع وقت ممكن».

أغمضت سوريل عينيها وقالت: «أنا آسفة. لا أذكر ما حدث».

أصبح صوته أقرب وهو يقول: «وقعت عن ذاك السلم اللعين وتسببت لنفسك برضوض. هل يمكنك أن تنهضي إذا ما ساعدتك؟».

فكرت في الأمر للحظة ثم ردت: «نعم».

تصرّف بلطف مفرط، وما إن استقامت حتى رفعها بين يديه وحملها إلى الأسفل. شعرت بالرضا والأمان بين ذراعيه، رغم رزمة الثلج التي وضعتها

على رأسها.

- ستصل السيارة قريباً. بعدئذ، سأقلك لرؤية الطبيب.

- أنا لا أسبب سوى الأذية. جعلتك تنام على الأرض، ثم كدت أغرق في الحمام، والآن هذا.

وضحكت ضحكة مريرة قبل أن تضيف: «لن تصدق أني لم أتعرض لأيّ حادث قبل عودتي إلى هنا، وعلى مدى عشر سنوات».

قال: «أصدّقك. كيف حال رأسك؟».

- أفضل بعض الشيء. إنك جار جيد يا لوك.

قال وهو يفتح الباب الأمامي ويتوجه إلى الممر الرئيسي: «ليس بما يكفي».

لقد نسيت أن الجسر غير قابل للاستخدام. أغمضت عينيها، وعبست بسبب نور الشمس الساطع: «أظن أني قادرة على السير الآن».

فقال بلباقة: «لن تتمكني من السير حتى الطريق، لا سيّما مع إبقاء عينيك مغمضتين. لا تقلقي... وزنك ليس ثقيلاً».

كانت بين بانتظارهما، وقد بدا القلق على وجهها وهي تفتح باب السيارة الخلفي لسوريل. قالت: «وضعت بعض الوسائد هنا والدلو».

قالت سوريل وهي تحاول أن تبتسم:

- شكراً لك. لن أصاب بالغثيان... أشعر بتحسّن الآن.

ساعدها لوك على الصعود إلى المقعد الخلفي وأسندها إلى الوسائد قبل أن يسأل: «هل أنت بخير؟».

- أنا بخير.

لكن الحركة جعلت رأسها ينبض مجدداً؛ فأغمضت عينيها بسرعة وضغطت بالكمادة الباردة على جبينها.

سألت بين لوك بهدوء: «هل تريدني أن أرافقكما؟».

فردّ وهو يصعد خلف المقود: «لا، تبدو شاحبة، لكنها ستكون بخير.

شكراً لك».

عاينها الطبيب في أمكنة عدة من جسدها، كما عاين عينيها، ثم وصف لها مرهماً للكدمات وأرسلها إلى المنزل طالباً منها أن ترتاح أربع وعشرين ساعة وتبقى تحت المراقبة.

ـ ممنوع القيادة والرياضة أيضاً بالطبع.

قال هذا للوك، بعد إعطائه لائحة بالأعراض التي ينبغي مراقبتها. ابتسم لسوريل وهو يضيف: «إنما يبدو لي أنها قوية. راقبها وحسب».

وفي السيارة، قالت سوريل بشيء من تشنجها المعتاد:

ـ أشكرك على كل ما فعلت، إنما لا داعي لأن تقلق، فأنا أشعر بتحسن.

أمرها لوك وهو يخرج السيارة بمهارة من المرآب: «إن كنت تحاولين إبلاغي بأنك لا تريدين مرافقتي إلى واينامو، فانسي الأمر. لِمَ لم تستخدمي السلم الذي أرسلته لك؟».

ـ أي سلم؟

ـ سوريل...

تبخّر كل ما تبقى لديها من طاقة، فاستندت إلى الوسائد خلفها فيما انطلق بالسيارة. قالت له بسأم: «لو أرسلت سلماً لاستخدمته».

تفجّر غضبه القوي، إلاّ أنه اكتفى بأن قال: «على أيّ حال، ليس لديك سوى سرير واحد في بارينجا».

ـ إذن؟

ذهولها جعلها تجد صعوبة في نطق هذه الكلمة البسيطة.

ـ سمعت ما قاله الطبيب... يجب أن تبقي تحت المراقبة أربع وعشرين ساعة. إذا أمضيت الليلة في بارينجا فسيتوجب عليّ مقاسمتك سريرك لأني لن أنام على الأرض أو على إحدى الكراسي.

لمست تصميماً خلف نبرة الدعابة في صوته، فاستسلمت سريعاً:

ـ حسناً. لست قوية بما يكفي لمواجهتك. سأرافقك إلى واينامو.

ـ بدأت الآن أشعر بالقلق، ما هذا الإذعان والخنوع؟

كانت واثقة من أنه يبتسم، فاعتصر قلبها لكنها ردت: «استفد من هذه الفرصة التي لن تدوم».

عندما وصلا إلى واينامو رفضت أن تدعه يحملها، وقالت بعناد:

ـ يمكنني أن أمشي، فألم الرأس أخف الآن وساقاي بخير.

راقبها وهي تخطو بضع خطوات قبل أن يقول:

ـ لا تزالين ضعيفة بعض الشيء.

ساندتها ذراعه التي أحاط بها كتفيها حتى صعدت السلالم ووصلت إلى غرفة الضيوف فيما بقيت بين قريبة منهما لمدّ يد العون. وخطر لسوريل أنّ هذه الرعاية وهذا الاهتمام ليسا شخصيين... فالرجل الذي يحمي فراخ بطة في ممتلكاته سيبذل قصارى جهده من أجل أي شخص تعرّض للأذى.

قالت مدبرة المنزل: «أحضرت بعض ملابسك وحاجياتك من بارينجا. أرجو ألاّ تمانعي لأني بحثت بين أغراضك...».

ابتسمت سوريل الجالسة على طرف السرير وردّت:

ـ بالطبع لا. على أيّ حال، أراهن على أنّ لوك طلب منك ذلك.

قال لوك بهدوء: «لقد فعلت. ستبقى بين هنا حتى تخلدي إلى النوم. إذا احتجت أيّ شيء فاقرعي الجرس».

وأشار إلى الطاولة بجانب السرير حيث رأت جرساً صغيراً من البرونز قبل أن يضيف: «سأذهب إلى بارينجا وأنظّف الفوضى التي أحدثها الطلاء الذي أوقعته عندما سقطت عن السلم».

عندئذ، تدخلت مدبرة المنزل قائلة بهدوء: «لقد قمت بذلك».

ـ هذا جيد.

تأملت العينان الداكنتان والباردتان سوريل باهتمام ثم أضاف:

ـ يمكنك أن تنزلي لاحقاً لتناول العشاء إذا ما شعرت أنك قادرة على ذلك.

راقبته سوريل وهو يخرج من الغرفة قبل أن تلتفت إلى مدبرة المنزل التي سألتها:

ـ أتودين الاستحمام؟

ـ أرغب في ذلك، لكني لا أحتاج فعلاً للمساعدة والمراقبة مهما كان رأي لوك. فأنا بخير باستثناء بعض الرضوض والآلام وشيء من الألم في رأسي، ولا بد أن لديك أموراً أخرى تهتمين بها.

ابتسمت لها بين ابتسامة مصطنعة وقالت:

ـ نحن معتادون هنا على تنفيذ ما يقوله الرجل. سأنتظر حتى تخلدي إلى النوم.

وفي وقت لاحق، استلقت سوريل التي ارتدت قميصاً وسروالاً قصيراً مريحين، في السرير وتنهدت.

كان ألم رأسها قد تراجع ليحل محله ألم خفيف بالكاد أحست به، إلاّ أن القراءة أو مشاهدة التلفزيون لم تبدُ فكرة حسنة. وبالرغم من أن بين أعدّت لها إبريقاً من عصير الليمون اللذيذ وبعض الحلوى، إلا أن سوريل لم تكن تشعر بالجوع كما لم يكن بإمكانها تقبّل أي شراب.

وجدت صعوبة في الخلود إلى النوم، فكل خلية في جسدها كانت متنبهة، وقد أثارها قرب الرجل الذي تحب. لا فائدة من إقناع نفسها بأن هذا الوضع مجرد هدنة، فقلبها الغبي يعمل على إضعافها من الداخل.

راقبت الغيوم تحتشد في السماء الزرقاء فيما بقي الهواء ساكناً حتى تلبدت السماء تماماً. ومع حلول الغسق، بدأ الرعد يقصف بهدوء عند التلال.

طرق خفيف على الباب جعلها تستقيم في سريرها، قالت: «تفضل».

ملأ حضور لوك القوي الغرفة: «كيف حالك؟».

الرجال الذين بقوته ورجولته، يجب أن يسجنوا، فهم يسببون الكثير من

الضرر لقلوب النساء.

أخبرته سوريل بصراحة وهي تحارب سعادة تملكتها: «إني ضجرة».

تأملت نظرته الرمادية وجهها: «هل تودين تناول العشاء هنا أم في الأسفل؟».

أعلنت بحماسة: «في الأسفل. أنا أحب هذه الغرفة لكني بت أعرفها جيداً».

ابتسامته أظهرت أسنانه البيضاء: «كيف حال رأسك؟».

ـ ألم رأسي يكاد يختفي.

كانت بين قد أحضرت سروالاً أنيقاً، حملته سوريل معها من عهد عرض الأزياء وقميصاً حريرياً بلون العسل يضفي على عينيها بريقاً ذهبياً. وبعد أن سرّحت شعرها بانتباه لتتجنب الرضة في رأسها، خرجت.

التفت لوك إليها وتأملها مجدداً: «أأنت بخير؟».

ـ بخير. الرضة لا بأس بها لكنها لا تؤلمني إلا إذا لمستها.

لم يجبها، بل قدم لها ذراعه فأراحت أصابعها عليها وتركته يرافقها إلى الأسفل.

قدّمت لهما بين وجبة لذيذة، لكن شهية سوريل اختفت للأسف مع وصول لوك.

قاد الحوار بلباقة وهدوء، فوجدت نفسها تنسجم سريعاً في نقاش مفعم بالحيوية حول كتاب قرآه مؤخراً.

سألها لاحقاً: «أترغبين في شيء تشربينه؟».

ـ المياه تناسبني.

وأكلت بعض الهليون اللذيذ المغطى بالزبدة، فيما قال وهو يرمق طبقها بنظرة: «المياه تناسبني أيضاً. كانت شهيتك أكبر وأفضل منذ عشر سنوات.

أبقت سوريل ناظريها منخفضين لثوانٍ: «كنت في طور النمو منذ عشر

سنوات».

ـ أتعنين أنك لم تكوني قد تعودت تجويع نفسك بعد.

قالت: «أنا آكل جيداً في العادة. لا تصدق كل ما تقرأه عن العارضات اللواتي يجوعن أنفسهن، بالطبع، بعضهن يصلن إلى حدود التطرّف في الحميات، لكن معظمهن يأكلن بشكل طبيعي».

ـ إذن، فنقص شهيتك اليوم ناتج عن السقطة؟

وضعت سكينها وشوكتها وتهربت من سؤاله: «على الأرجح».

أسند لوك ظهره إلى كرسيه فيما أحاطت أصابعه بكأس الماء وقد بدت عيناه قاسيتين وهما تتأملان وجهها. سألها: «هل تشعرين بالغثيان؟ هل ترين بشكل مزدوج؟».

ـ أبداً. فقد نهضت ببطء.

رفعت ذقنها وشرعت باعتذار كانت تتدرب على قوله منذ وصلت إلى واينامو:

ـ أنا آسفة لأني استخدمت ذاك السلم المخلخل. يبدو أني لا أقوم إلاّ بتصرفات غبية منذ عودتي، فتضطر لسوء الحظ إلى التدخل في كل مرة. عندما قلت إن حياتي تعتدي على حياتك، غضبت، لكنك كنت محقاً. من الآن وصاعداً، سأتصرف بحذر أكبر.

ـ إذا حان وقت الاعتذار، فلدي اعتذار أنا أيضاً. طلبت من أحدهم أن يحمل إليك سلماً جيداً، لكنني لم أفكر في التحقق من وصوله إليك.

قالت سوريل وقد صدمها أن يفكّر بهذه الطريقة: «لوك، الخطأ ليس خطأك».

ـ لو تأكدت من أنه وصلك، لما وقعت.

كررت: «الذنب ليس ذنبك. أرجوك لا تظن ذلك... أكره أن أشعر أن حسن الجوار في نيوزيلندا ليس سوى شعوراً بالذنب!».

ضحك لوك، وللحظة جمعتهما رفقة هشة، وقال بمرح: «قمت بأمور تشعرني بالذنب. على أيّ حال، سلمك يرقد الآن مع كومة من الحطب».

فغرت سوريل فمها. والتقت عيناها بعينيه الرماديتين اللامعتين ثم قالت بكياسة متشنجة: «أشكرك لأنك أنقذتني من حمله بنفسي».

كشر وقال: «على الرحب والسعة. حاولي أن تأكلي المزيد من هذا الدجاج قبل أن تحضر بين التحلية».

كانت كلماته أمراً أكثر منها اقتراحاً، لكنها قبلت بصوت أشبه بمداعبة. احمرّ وجهها والتهمت بعض الطعام. وعندما انتهت كانت قد استعادت رباطة جأشها.

رفضت تناول التحلية اللذيذة التي حملتها بين والقهوة أيضاً. كانت الاعتذارات قد تركت الجو صافياً بينهما، وشعرت بأنهما وقعا هدنة أطول رغم أنها لا تزال تشعر بتأثير رجولة لوك فيها. عاملها لوك بكياسة امتزجت بشيء من الغزل الخفيف. وراحت تتحدث حتى فاجأتها تثاؤبة.

قال لوك على عجل وهو يقف: «إلى السرير».

تبعت سوريل مثله لتجد الغرفة تدور من حولها. تمسّكت بطرف الطاولة وأغمضت عينيها.

ـ سوريل!

دار حول الطاولة بسرعة، وشدّها إلى صدره، فيما اشتدت يداه حول خصرها ليبقيها واقفة.

ـ لا بأس... لقد وقفت بسرعة وحسب.

فتحت عينيها بحذر، وقد ارتاحت حين توقفت الغرفة عن الدوران من حولها. سألها لوك: «هل أنت واثقة؟».

قالت بثبات وهي تستقيم: «تماماً».

أدارها بين ذراعيه وتأملها بعينين ضيقتين نافذتين ثم أذهلها حين رفعها

وحملها إلى الباب. قالت بصوت مخنوق وقد تبخّر استرخاؤها:

ـ أصبح الأمر عادة.

حملها قريبة منه فأجفلت حين لفّها دفء جسمه وجرّدها من أيّ قوة في عظامها. قال لها بإيجاز: «تبدين غير قادرة على السير».

ـ بالطبع أستطيع...

خرجت كلماتها لاهثة فعضت على شفتها وابتلعت بقية جملتها. لم يتكلم، لكن ذراعيه اشتدتا حولها وهو يتوجه إلى البهو.

أخذت سوريل نفساً عميقاً ونظرت بثبات إلى الأمام حتى أنزلها على السرير ببطء ورقة فائقة. التفتت إلى الأعلى وغرقت في اللهب الأزرق.

خطر لها أنه سيعانقها فيما أغمضت عينيها وخاضت معركتها الذاتية.

لكني لن أبادله العناق...

ورغم أنها قررت مقاومته، إلاّ أنها أرادت أن يعانقها أكثر مما أرادت أن تتنفس.

لم تتمكن من رفضه، كما لم تستطع أن تفعل يوماً. وحده لوك، وحده لوك وإلى الأبد.

ـ سأخلع لك حذاءك.

قال هذا وانحنى ليفكّ رباط صندلها.

أحنت رأسها وراحت تتأمل الشريان النابض في عنقه الأسمر. عندما أنزل الرباط المصنوع من الجلد، لامست يداه الباردتان كاحلها فأرسلت شحنات كهربائية في جسدها. أذهلتها الشرارات الزرقاء في عينيه... ذات التأثير المغناطيسي مع بؤبؤه الرمادي.

انحنى قليلاً وراح يدلك قدمها، ممرراً إبهاميه على عظام كاحلها.

لمسته ورؤية رأسه الداكن قربها أثارا فيها توقعاً مؤلماً.

ـ انتهينا.

قال هذا ورفع رأسه إلى الأعلى ليكتشف أنها تراقبه. جمد ثم لامس خدها ببطء، أقرب إلى الحنان. وسقطت سوريل في أعماق عينيه المتوهجتين؛ انحنت إلى الأمام وهمهمت بنعومة فيما شدّتها ذراعاه إليه.

جاء العناق مختلفاً... أكثر حناناً وأعمق وألطف من أيّ عناق آخر. وعندما انتهى، وجدت نفسها تستند إلى صدره، تستمع إلى طرقات قلبه المتسارعة والابتسامة ترتسم على شفتيها.

عندئذ، قال بصوت خفيض: «أنا واثق من أنّ هذا ليس ما عناه الطبيب حين تحدث عن إبقائك تحت المراقبة».

قالت وهي تشعر بدوار: «لا».

أسند ظهرها إلى الوسادة وقال بإيجاز: «أنا آسف. لم أتقصد ما حصل. كيف حال رأسك؟».

تنهدت وردت: «يعلمني بوجوده».

قال شيئاً بصوت أقرب إلى الهمس فيما راح يدلك جبينها، ثم أعلن:

ـ أنت منهكة ولا عجب في ذلك. سأتركك الآن... حاولي أن تنامي. سآتي خلال الليل لأتفقدك وأتأكد من أنك بخير؛ لذا، لا تخافي إذا ما أحسست بوجودي. تصبحين على خير سوريل.

ـ تصبح على خير لوك.

رفض النوم أن يحملها إلى العالم الذي تمنت أن تصل إليه. وبقيت لوقت طويل تحدق إلى عظمة النجوم الصامتة وتستمع إلى النهر المتدفق. تفقدها لوك مراراً ووقف إلى جانب السرير بصمت، فادّعت النوم في كل مرة، حتى نامت فعلياً.

• • •

أثناء العشاء في اليوم التالي، أعلنت سوريل أنها ستعود إلى منزلها.

قال لوك: «حسناً، إنما سأزورك مرات عدة في اليوم لأطمئن إلى حالك».

وضع خطته هذه الليلة الماضية، حين كان واقفاً قرب سريرها يستمع إلى تنفّسها. كان من الممكن أن تؤذي نفسها أكثر. وهو لا يزال يشعر بالغثيان عندما يتذكر جسدها الرائع المرمي على الأرض.

نظرت إليه سوريل بانزعاج، وقالت: «رأسي بخير».

ـ ماذا عن الرضوض والكدمات؟

فعلى الرغم من أن وجهها لم يعد شاحباً إلا أنها لا تزال تبدو ضعيفة.

ـ سيبدو مظهري مأساوياً، لكن المرهم سيفيدني.

ـ لا تكملي أعمال الطلاء ولا تقومي بأي عمل يتطلب منك مجهوداً.

وحين لم تجبه قال بتهديد من حرير: «سوريل؟».

أجابت وقد بدا العناد على فمها: «لا يحق لك أن تضع شروطاً!».

ـ إذا لم تعديني بأنك لن تقومي بسوى أعمال منزلية بسيطة فسأقيدك إلى السرير في الأعلى.

لم يكن من عادته أن يطلق التهديدات، لكنه مستعد للقيام بما يلزم ليمنعها من الاتيان بأي تصرف من شأنه أن يؤخر مثولها للشفاء.

راحا يحدقان إلى بعضهما البعض للحظات، شرعت بعدها تقول:

ـ أعلم أنّ نواياك حسنة، إنما...

ـ خسرت نصف عمري حين رأيتك أرضاً. لو أني تأكدت من أن السلم وصلك في بارينجا لما حصل ما حصل.

وعلى الفور، تحوّل لمعان عينيها الكبيرتين إلى تفهم فيما بدا فمها أرق. قالت بسرعة: «لوك، أرجوك لا تلم نفسك».

هزّ كتفيه وقال: «بل إني ألوم نفسي. ستحضر بين عشاءك كل ليلة حتى يؤكد الطبيب شفاءك التام».

تجاهلت وجبتها التي لم تنهها، وانحنت إلى الأمام محدّقة إليه: «ألا تستسلم أبداً؟».

ردّ بهدوء: «لا».

رمقته بنظرة متفحصة قبل أن تقول بصوت عادي:

ـ لم أكن أخطط للقيام بأي عمل حتى يسمح لي الطبيب بذلك.

وفي اليوم التالي، جلست إلى جانبه في السيارة، وشكرته بصوت هادىء ثم أنهت كلامها: «أتعلم، لم أكن مضطرة لتسلق ذاك السلم».

ابتسم لها لوك ابتسامة أرسلت النار في عروقها: «انتبهي لنفسك وحسب من الآن فصاعداً».

وهكذا فعلت.

كان يزورها مرتين أو ثلاث في اليوم ويحرص على ألاّ يلمسها وعلى ألاّ يقوم بما قد يؤدي بهما إلى عناق آخر. أدركت سوريل أن هذا البعد البارد هو حسّاسية، لكن مع اختفاء الرضوض تدريجياً، وجدت صعوبة متزايدة في معالجة الحاجة التي تتنامى في داخلها كلما رأته... أو حتى فكرت فيه.

ـ لا يمكنني أن آتي في الغد.

قال لها هذا في أحد الأيام حين التقيا على الطريق، هو في سيارته، وهي تتمشى نحو الشاطىء برفقة باغي.

أحست سوريل بخيبة الأمل تتملكها. لكنها قالت وهي تبتسم له بتصميم جعل خدّيها يؤلمانها: «لا بأس. لا حاجة بك لأن تكون دقيقاً في مسألة مراقبة وضعي الصحي... فأنا بخير الآن».

ترجّل من السيارة، قوياً، حازماً أقرب إلى الحيوان المفترس:

ـ لديّ اجتماعات في وانغاريه، وأحدها سيُعقد في وقت متأخر. قد اضطر للبقاء هناك.

ـ أتمنى لك وقتاً طيباً.

ولكي تظهر له أنها لا تهتم فعلاً ما إذا جاء لرؤيتها أم لا، رفعت يدها وربتت على خده. رفع يده ليمسك بيدها ثم أدار رأسه ليطبع قبلة على راحة

يدها.

أطلق سراحها فتراجعت وقد احمرت وجنتاها وانقطعت أنفاسها.

رافقتها أحداث ذاك اليوم، الليل بطوله وفي اليوم التالي، كوعد عذّبها.

وعند موعد الغداء، وضعت الفرشاة من يدها ونزلت إلى الأسفل لتعد لنفسها سندويشاً. وكانت قد انتهت من تناول الطعام لتوها حين سمعت طرقاً على الباب الأمامي. عبست وتوجّهت إليه تفتحه.

قالت المرأة التي كانت تنتظرها، وهي امرأة قصيرة القامة، شقراء وذات مفاتن ظاهرة: «مرحباً سوريل، مرّ زمن طويل».

ابتلعت سوريل بريقها: «ماري. تفضلي».

ـ شكراً.

التفتت ماري أونيل من حولها ثم أضافت: «أرى أنك تبدلين الديكور».

قالت سوريل التي استاءت لهذه الزيارة فيما هي ترتدي قميصاً ملطخاً بالدهان وسروالاً قديماً: «نعم. أترغبين في فنجان من القهوة؟ أم الغداء؟».

ابتسمت المرأة الأخرى ابتسامة صريحة: «لا، شكراً لك. يجب أن أتحدث إليك».

قادتها سوريل التي أصابتها الدهشة إلى غرفة صغيرة، مؤثثة بكرسيين وطاولة وتطل على حديقة تفوح منها رائحة الغاردينيا والورود، أزهار جدتها المفضّلة.

جلستا. تأملت ماري حذاءها الإيطالي الباهظ الثمن، وقالت:

ـ هل تعلمين أني ولوك كنا حبيبين لسنوات؟

١٠ ـ قسم ووعد

لم تثق سوريل بنفسها لتتكلم، فأومأت برأسها.

قالت ماري بهدوء: «افترضت أننا ستتزوج لاحقاً. حسناً، نحن لم نتحدث في الأمر؛ نحن... كنا صديقين، وقد أوضح لوك أنه سعيد بالوضع. كما كنت سعيدة أنا أيضاً في معظم الوقت... فعملي متطلب جداً، وحسناً...».

وأشارت بيدها إشارة لا معنى لها قبل أن تنزلها في حضنها وتضيف:

ـ... نجح الأمر.

ـ لا أظن...

ـ أرجوك، أصغي إلي.

إلا أن ماري صمتت طويلاً قبل أن تستأنف كلامها بحيث رمقتها سوريل بنظرة قلقة. لم ترَ شيئاً خلف الوجه المزين بعناية، والهادىء والساكن. قالت ماري ببطء: «وقعت في حبه طبعاً، فمن السهل حصول ذلك».

شاب ابتسامتها تعاطف ساخر عندما رفعت رأسها لتنظر إلى سوريل، وأضافت: «إنه ذكي ويستمع حقاً لما لديك لتقولينه... معظم الرجال لا يفعلون».

عضت سوريل على شفتها. وتابع الصوت الواضح والقاسي:

ـ بسبب أمه الساقطة وزوجة أبيه الكريهة، لا أظن أنه سيثق يوماً بأي امرأة بما يكفي ليحبها. وعندما سيتزوج... وسيفعل لأنه من عائلة هاردكاسل ويريد وريثاً لوانامو... سيختار زوجته باهتمام وعناية وبرود كما ينتقي

قطعانه.

ورفعت ناظريها إلى سوريل وقد امتلأت عيناها بالدموع فازدادت جمالاً:

ـ لن يختارني أنا كما لن يختارك أنت أيضاً. فأنت تجمعين كافة الصفات التي لا يثق بها... الجمال، الحنكة، والجاذبية.

أصدرت سوريل صوتاً خافتاً عبّر عن صدمتها. هزّت ماري كتفيها:

ـ ليس خبيثاً، لكنه يكره العلاقات التي تخرج عن السيطرة، لذا تجدينه يكره نفسه لأنه لم يتمكن يوماً من إخراجك من تفكيره. لم يساعده بالطبع رؤية وجهك على لوحات الإعلان وفي كل مجلة وصحيفة لسنوات.

ـ كيف عرفت كل هذا؟

قالت ماري وقد زمّت فمها: «أنا أعرفه جيداً. أحببته طوال تلك السنوات، ولهذا السبب جئت، لأحذرك. إنه عاشق رائع، إنما لا تدعيه يتلاعب بك كما فعل بي، صدقيني...»؟

وتكسر صوتها لكنها عادت وتمالكت نفسها ثم أنهت كلامها:

ـ... الأمر لا يستحق العناء.

هبّت واقفة مع ابتسامة شاحبة، وقالت من دون انفعال: «كان لك تأثير مغيّر على الأقل. لعلي استمريت في إضاعة وقتي لو لم تعودي. أتذكرين أني قلت لك يوماً إن النساء يختزن دوماً... وأجبت أنّ لوك يقوم بخياراته الشخصية؟ ليتني استمعت إليك. الوداع... وحظاً سعيداً».

راقبتها سوريل وهي تقطع الممر وتجتاز الجسر، ثم استمعت إلى صوت سيارتها حتى غاب.

أجبرت نفسها على العودة إلى العمل. كلمات ماري عززت وحسب حقيقة رفضت أن تعترف بها. إن عدم ثقة لوك بالنساء عميقة جداً بحيث قد لا يتمكن أبداً من التغلب عليها.

ماذا ستفعل؟ هل ترضى به كما هو أم تتراجع وتتقوقع على نفسها وترفضه؟

كل خيار من هذين الخيارين يعني آلاماً لا نهاية لها. أدركت أنها تحدق إلى الحائط منذ دقائق من دون أن تفعل شيئاً، فيما عقلها يبحث بيأس عن طريقة للخروج من هذه الطريق المسدودة. تحركت ببطء، ونزلت عن السلم مقفلة علبة الطلاء قبل أن تغسل الفرشاة.

قالت بصوت عادي وهي تكبح يأسها: «هيا يا باغي، لنقم بنزهة على الشاطىء».

سارت طويلاً تحت أشعة الشمس المحرقة قبل أن تبحث عن ملجأ لها تحت أغصان إحدى الأشجار. راحت الأفكار تدور وتدور في ذهنها المتعب، فيما هي تحدق من دون أن ترى إلا البحر اللامع كما لم تسمع همس الأمواج على الرمل الأبيض الساخن وصراخ بعض طيور النورس التي تتقاتل على شيء ما.

وفكرت في أنها لن تهرب ثم التقطت حفنة من الرمال وتركتها تسيل من بين أصابعها. عليّ أن أجد حلاً.

لفّت ذراعيها حول ركبتيها وأراحت رأسها عليهما، لتستمع إلى نبض قلبها غير المستوي. ماذا لو أنّ حبها له من دون شروط ومن دون أمل ومن دون حدود، أعاد ثقته المفقودة بالنساء؟

بلهاء! أينقذه حب امرأة طيبة؟ لم ينجح الأمر مع ماري ولن ينجح معها.

لعل الأيام علمتها أنها تحب لوك، لكنها لن تضحي بسنوات من عمرها في محاولة لا فائدة منها لإقناعه بأنها وفية وجديرة بالثقة.

قالت بمرارة وهي تنفض الرمل عن ساقيها: «حان وقت العودة يا باغي».

غداً، ستتصل بشخص في أوكلاند بحثاً عن عمل؛ فالعمل سيبعدها عن المنزل، إنما لو جعلت من بارينجا قاعدتها فتكون قد التزمت بشروط وصية سينتيا. بعدئذ، ستبيع المنزل وتبدأ حياة جديدة في مكان آخر.

وضعت يدها على قلبها وكأنها تستطيع أن تضع حداً لألمه المبرّح بقوة إرادتها. ستتخطى حبها للوك مع مرور الزمن، لأنها هي من قرر هذه المرة أن

يرحل.

الليلة، عندما يعود، ستخبره أنها لا تريد لعلاقتهما، إذا ما استطاعت أن تسمي ما جرى بينهما علاقة، أن تستمر.

كانت تحدق إلى عشائها الذي لم تمسّه حين رنّ جرس الهاتف... إنه لوك.

قالت وقلبها ينتفض بجنون في صدرها: «مرحباً، كيف كان نهارك؟».

ـ جيد. سأصل إلى بارينجا بعد نصف ساعة على الأرجح.

ـ أنا... حسناً. هذا جيد. أراك لاحقاً.

كان الحوار رسمياً بشكل غريب... لا، لم يكن رسمياً بل غير شخصي.

ربما لم تكن مضطرة لاعتماد ذاك الخيار المؤلم على الشاطىء. لعله اختار بدلاً منها.

مزيج من الصدمة والاضطراب قادها إلى الحديقة. أخذ باغي يدور حول كاحليها، فيما سارت في الغسق المثقل بالعطور حتى لاحظت حركة قرب الجسر.

توقّفت مرتجفة تحت شجرة الماغنوليا وأراحت يدها على لحائها البارد. الشمس الغاربة، تلك الكرة الذهبية في السماء القرمزية، على شعر لوك الأسود. كان قد ترك سيارته إلى جانب الطريق وراح يقطع الجسر بثقة تكاد تحاكي الاعتداد بالنفس.

سارع باغي لملاقاته؛ وفكّرت سوريل في أنهما ذكران متغطرسان، وهي تحاول كبح القشعريرة التي سرت في جسمها.

كانت قد استبدلت سروالها الملطخ بالطلاء بآخر ناعم وارتدت قميصاً ذهبياً بلون عينيها، ورفعت شعرها على شكل ذيل حصان. بدت الملابس درعاً هشاً للغاية، لكنها كل ما لديها.

علّق لوك فيما عيناه الرماديتان القاسيتان تتأملانها: «تبدين كتحفة فنية».

ابتسمت له أكثر ابتساماتها برودة: «تبدو للعالم كله كرجل مال. كيف

جرت اجتماعاتك؟».

كان يرتدي سروالاً يعزز قوة ساقيه الطويلتين، وقميصاً يظهر كتفيه العريضتين. قال: «بشكل جيد. ادعيني للدخول».

راقبته سوريل من تحت أهدابها. بدا متعباً ومتجهماً، فاعتصر الألم قلبها.

ـ هل من شيء رمزي جداً في دعوتك إلى بارينجا؟

ـ توقّفي عن المراوغة يا سوريل. فعليّ أن أتحدث إليك.

قالت على عجل وقد أجفلتها كلماته الأخيرة المشابهة لكلمات ماري: «حسناً، ادخل».

عندما وصلا إلى غرفة الجلوس، لم تعرض عليه أي شراب. بل جلست فيما وقف هو قرب النافذة ينظر إلى الحديقة.

ساد التوتر في الغرفة، فشعرت ببشرتها تشتد في ردّ فعل على إحساسها بالخطر. وحين لم تعد تحتمل، سألته بفظاظة: «ماذا يجري؟».

استدار ليواجهها فلم تعد ترى منه سوى الخطوط العريضة لبنيته على خلفية السماء القرمزية في الخارج: «في بادىء الأمر، ماذا قالت لك ماري اليوم؟».

الصدمة أخرستها. لكنه تابع بصوت لا يوحي بشيء: «يبدو أن ماري جعلت من بين كاتمة أسرارها. أخبرتها بين بعودتك عندما وصل صندوقك، وعندما غادرت هذا المنزل اليوم قصدت واينامو لترى بين التي اتصلت بي بعد رحيلها».

ـ إذن، لهذا السبب...؟

ـ نعم، لهذا السبب كانت بين باردة معك. ولهذا السبب أيضاً لم توصل رسالتي بخصوص السلم، فقد قلت لها أن تطلب من أحد الرجال أن يحمله إليك، لكنها لم تفعل.

قسا وجهه لتصبح ملامحه متحجرة، وأضاف: «إنها آسفة جداً على ما حصل... وليس لأنها كادت تفقد عملها وحسب. فهي لم تكن تتقصد

أذيتك».

ـ أنا واثقة من ذلك.

ـ لن يحدث هذا مجدداً.

وتأمل الغرفة وكأنه لم يرها من قبل، ثم سأل: «ماذا قالت لك ماري؟».

ردّت سوريل بذكاء: «لا شيء لم أكن على علم به».

التمعت عينا لوك وقال بنبرة لطيفة أرسلت رعشات على طول عمودها الفقري: «أخبريني».

ـ أما زلت تراها؟

رفع رأسه، لم تستطع أن تقرأ شيئاً في ملامحه، أو في صوته حين قال: «لا».

الكلمة البسيطة، الناعمة صدمتها كما لم يكن ليفعل الصراخ والغضب. إلا أنها قالت بلهجة عادية: «وأنت لا تخرج معي، لذا، لا يحق لك أن تسمع تفاصيل محادثة بين شخصين لا يعنيان لك شيئاً».

حدّق إليها، بعينين متوهجتين وفم مشدود: «ماذا تعنين... بأني لا أخرج معك؟».

أخذت سوريل نفساً عميقاً، مؤلماً وأجبرت الكلام على الخروج من حنجرتها الضيقة: «إذا ما كنت تسعى إلى الترتيب نفسه الذي جمعك بماري، فأخشى أني لا أناسبك».

أمعن النظر إليها ما جعل الاحمرار يغزو جلدها، وقال بنبرة حريرية وهو يتقدم منها بخطى عازمة: «أنا واثق من أنك تتصرفين بتواضع».

استجمعت قواها. لم تكن لتتحمل أن يعانقها بغضب، وقلة احترام وشهوة.

لاحظ ذلك بالطبع؛ فتوقف على بعد خطوة منها وقد تجهم وجهه.

ـ ما الأمر؟ تعلمين أني لن أؤذيك.

ـ لوك، أرجوك لا تفعل هذا.

قالت هذا بأنفاس مرتجفة فأغمض عينيه لحظة قبل أن ينظر إليها بعينين لامعتين.

سألها بصوت بارد: «أخبريني، كيف تنوين دفع كلفة إصلاح الجسر؟».

ـ سأتدبر أمري.

ـ ما من شك في ذلك. هل سيسهل الأمور إذا ما عرضت عليك قرضاً... بشروط سهلة جداً طبعاً؟

ونظر إليها بمزيج من الغضب والرغبة قبل أن يردف: «ربما مع مبلغ إضافي كي تتمكني من استخدام عمال لإجراء التصليحات في المنزل؟ ما هو السعر الذي تضعينه لنفسك؟».

ضربت يدها وجهه من دون تردد. ولم يتحرك حتى عندما أصبح لون آثار أصابعها على وجهه أحمر.

اختفى اللون عن وجهها فبقيت شاحبة، باردة. وهمست وقد أثار فيها الغضب والإذلال الغثيان: «أنا لست عاهرة».

ـ لست بالطبع فتاة بريئة خجولة.

راقبها وكأنها تثير اشمئزازه، وكأنه يكره نفسه لأنه يرغب فيها، وتابع: «لعلي كنت فظاً جداً. لنطلق على ما أقدمه اسم أمان، إنه يعني الأمر نفسه لكنه يبدو أفضل. كم ستكلفني برأيك أي علاقة معك؟».

ـ لا شيء من دون حب.

ضحك.

كم مرة قرأت عن القلوب المحطمة وظنت أن المسألة مجرد كلام! لكنها شعرت بقلبها يتحطم، ينقسم من أعلاه إلى أسفله ويتحول إلى أشلاء. كان الألم يتآكلها، والحل الوحيد لتنجو هو استجماع غضبها لتخفف مؤقتاً آلامها. قالت بفظاظة: «إذن، أنت كالآخرين تماماً».

ـ الآخرون؟

وعندما هزت رأسها وأشاحت بوجهها، سألها: «عما تتحدثين؟»

ـ ثمة رجال كثيرون مثلك يا لوك. إنهم مستعدون لدفع الكثير من المال ليخرجوا مع شخص مشهور ويقيموا معه علاقة. أهذا ما تريده؟

حاولت أن تكون قاسية في كلامها، لأنها إن لم تفعل فستجلب العار لنفسها بالانهيار والبكاء. وتابعت تقول: «مجرد عشيقة؟ عشيقة تستفيد من خدماتها حين ترغب في ذلك؟».

إنه محق... الحب ينطوي على الألم وخيبة الأمل. كان من الأسهل أن تعيش كل لحظة بلحظتها وتبقي قلبها بعيداً عن الألم.

لم يقل شيئاً بل سمّرها بنظرته الضيقة التي جعلت بشرتها تصطبغ بكافة الألوان. في أعلى شجرة القيقب في الخارج، حطّ طائر صغير وراح يشدو لحنه المسائي، وقلبه يخفق وسط الأغنية المجيدة.

وأخيراً قال: «أريدك».

أسلوب مباشر وبسيط وصادق، لم تستطع أن تشك بصدقه أو بتصميمه؛ ظهر ذلك في عينيه وفي صوته، وشعّ منه. إذن، ماري كانت محقة!

ورغم كل ما جرى، حرّكت كلماته رغبة تواقة داخل سوريل، وأثارت نيراناً. لكن اعترافه ليس كافياً.

فقدت قدرتها على التفكير، وبالكاد أدركت ما تقوله حين سألته بصوت أجش: «هل هذا هو التدبير الذي كان بينك وبين ماري؟ علاقة لقاء المال؟».

ـ لا.

ونظر إليها بوجه قاسٍ قبل أن يردف: «كنت أنوي الزواج من ماري».

مدت سوريل يداً لتتمسك بظهر أقرب كرسي إليها، وشدت عليه حتى ابيضت عظام أناملها. تفحّصت وجه لوك الغامض بعينين واسعتين: «ولِمَ لم تفعل؟».

قال لها بهدوء: «لأنك أرسلت صندوقاً إلى بارينجا، واكتشفت أني أنتظر

مرور الوقت لتعودي. عندما أدركت ذلك، أدركت أيضاً أني لا أستطيع أن أتزوج امرأة أخرى فيما لا تزالين تشغلين تفكيري».

ماري تعرفه جيداً بالفعل. قالت سوريل بصوت ضعيف: «لِمَ تكرهني إلى هذا الحد؟».

رفع رأسه وقال بإيجاز: «أنا لا أكرهك».

ـ أنت تظن أني كزوجة أبيك.

ـ لا. فهي ما كانت لتتخلى عن عمل كعملك لتعتني برجل مثل والدك، مشلول وغير قادر على الكلام.

وصمت فيما راحت عيناه الداكنتان تتفحصان وجهها، ثم تابع متعمداً:

ـ لا سيما إذا ما خسر كل قرش كسبته في القمار والمراهنة على الجياد.

فغرت سوريل فمها، ولم تتمكن من التنفس للحظة لكنها تمكنت من أن تسأل بصوت مرتجف: «كيف عرفت؟».

ـ من السهل أن يكتشف المرء الحقيقة إذا ما عرف أين يبحث. عندما غبت عن الأنظار فجأة، سرت شائعات... عن زواج، وعن إدمان على المخدرات، وعن إفلاس. أخبرتني سينتيا ذات مرة أن والدك يقامر... فالمسألة كانت تقلقها. لذا، عندما أدركت أنك مفلسة أجريت تحرياتي وقد وصلتني النتائج الليلة الماضية.

ابتعدت سوريل عنه بشكل مفاجىء وقالت تتلفظ كل كلمة بعناية: «لا يحق لك أن تتجسس علي».

تابع صوت لوك من دون رحمة: «ما كنت لتخبريني».

لم تكن جملته سؤالاً.

ـ بالطبع لا.

والتفت إلى يديها اللتين جمعتهما في حركة من لا حول له ولا قوة. قالت بشيء من الخبث: «ولِمَ عليّ أن أفعل؟ ما كنت لتصدقني. وحتى إن فعلت، لقد

افترضت أني عدت لأحصل على بعض المال منك».

سألها بازدراء مغلف بالحرير: «لما لم تصوري إعلانات لعطر آخر؟ أراهن على أن جسدك ما زال جميلاً ومثيراً كما كان حين صورت آخر إعلان».

اقشعر بدنها، لكنها شدّت كتفيها وقالت بفتور: «كنت أحتاج المال».

ـ أرجو أن يكون المبلغ كبيراً. فقد أثار الإعلان جدلاً؛ لذا، أفترض أنه ترك الأثر الذي صمم من أجله.

قالت بشجاعة رغم أنها ترتجف بعد أن أنهكتها الأحداث:

ـ لوك، ارحل أرجوك. هذا الحوار لن يصل بنا إلى أي مكان، كما أنني متعبة.

وبعد لحظة من الصمت المتوتر، استدار على عقبيه وغادر من دون أن ينبس ببنت شفة.

انتظرت سوريل حتى أغلق الباب الأمامي قبل أن تنهار في كرسي وتشرع في البكاء... دموع مرة، مؤلمة فاضت منها من دون أن تريحها.

وبعد حين، نهضت وتوجهت إلى الحمام لتغسل وجهها، وقد أدركت تماماً أنّ البقاء في بارينجا أمر مستحيل.

كانت تجرجر نفسها إلى سريرها عندما تعالى الطرق على الباب الرئيسي، طرق حاد لم يتوقف. همست: «لا أرجوك يا إلهي، لا».

لم يتوقف الطرق فاضطرت لفتح الباب. قال لوك بإيجاز وهو يشق طريقه إلى الداخل: «من الأفضل أن تضعي منظاراً في الباب».

بدا طبيعياً لكنها شعرت بغضب عارم يعتمل في داخله ما جعلها تتراجع.

سألت بهدوء وهي تتقدمه إلى المكتبة: «ماذا تريد؟».

ردّ بصوت صلب تخلله بعض الانفعال: «لقد طرحت علي هذا السؤال من قبل. أريدك أنت. أمضيت السنوات العشر الماضية أنتظر عودتك. لم أضع أي أثاث في غرف واينامو الأخرى لأنني أردتك أنت أن تؤثثيها. لا أعرف شيئاً

عن الحب إنما أعرف معنى الرغبة».

توقف عن الكلام وأسبل يديه إلى جانبيه قبل أن يضيف بتصلب: «والحاجة».

حدّقت إليه بعينين كبيرتين، واسعتين، خائفة من أن تتحرك أو تتكلم. قال:

ـ سوريل، هل أفسدت كل شيء إلى حد أنه لم يعد بالإمكان إصلاحه؟ هل يمكنك أن تصفحي عني؟ أصبت بالجنون منذ عودتك، ورحت أقاوم هذه... هذه الحاجة الماسة. وكلما رأيتك أكثر كلما رغبت فيك أكثر.

قالت بصعوبة: «هذا ليس كافياً، فلا يمكنني أن أعيش من دون ثقة وأنت لا تثق بي».

ـ أريد أن أرعاك وأن أحميك من كل ما قد يؤذيك أو يقلقك أو يزعجك.

تكلم بشغف، بنبرة تتماشى والكلمات. وعندما بقيت ملتزمة الصمت، أنهى حديثه قائلاً: «أريد أن أعود إلى المنزل ليلاً وأنا أعلم أنك بانتظاري. أريدك أن تحملي أطفالي. أنت تعنين لي أكثر من أي شخص آخر عرفته يوماً. لا بد أن هذا يعني درجة معينة من الثقة؟».

كان ينبغي أن تشعر بالنشوة والحبور، إلا أن هذا لم يكن كافياً. قالت:

ـ سمعت الكثير عما تريده أنت، لكنك لم تسألني أبداً عما أريده أنا.

رأت الغضب في عينيه، وبرودة صدمتها، لكنه أشاح بوجهه بحركة سريعة. قال بفظاظة وكأن كل كلمة ينطق بها تؤلمه: «إذن، أخبريني».

قالت ببساطة وهي تدرك أن لا مجال للتراجع الآن، وأنها تخاطر بحياتها وحياته لغايات أسمى: «أريدك لأني أحبك يا لوك. لا أذكر يوماً لم أحبك فيه. لكني لن أكون طرفاً في علاقة غير شرعية... كما فعل والدك».

شحب لوك وحدّق إليها للحظات طويلة قبل أن يستدير على عقبيه ويتوجه إلى النافذة ليقف عندها. التمعت زهور سينتيا في الظلام، ومن وراءها تناهى

إليهما همس البحر . . . أبدي، حزين، وغامض. قال بعناد: «الحب حوّله إلى رجل ضعيف، أبله وقد أقسمت ألا أقع فيه».

جفّ فم سوريل. وسمعت قلبها ينبض بسرعة فيما انتظرت أن ينهي كلامه.

أدار رأسه ونظر إليها بعينين قاسيتين وغامضتين: «لكن يبدو أن ما من خيار أمامي. فالحب ليس شيئاً يمكنك أن تنظمه أو أن تسيطر عليه، لأنه يختار مكانه وزمانه وطريقه».

ـ أظن أن لدينا الخيار.

تكلمت ببطء لأنّ هذا الكلام مهم جداً لكليهما. وأردفت:

ـ أنا أحبك ليس لأنك رجل مثير بل لأنك كادح ولطيف وذكي وشريف. وأنا . . . أنت رجل أحترمه.

وتجمعت الدموع في عينيها وهي تغامر بكل شيء في رميتها الأخيرة هذه:

ـ لكن الاحترام يجب أن يكون متبادلاً.

قال بهدوء: «أنا معجب بك أكثر مما يمكنني أن أعبر لك. لقد رعيت والدك بعد أن خانك، وعدت إلى هنا وأنت مستعدة للعمل في بارينجا. أنت ذكية ولطيفة، كنت مستعدة للمخاطرة بحياتك لتنقذي أكثر الهررة قدرة على التمثيل. . . وأنت جميلة جداً إلى حد يؤثر في قلبي».

عبست قليلاً قبل أن تقول: «لن أبقى جميلة إلى الأبد».

ورمقته بنظرة سريعة لكنها لم تستطع أن تقرأ تعابير وجهه؛ فقدرته على السيطرة على ذاته أفشلت كل محاولاتها لاكتشاف مشاعره الحقيقية.

ـ ستبقين دوماً جميلة في نظري.

قال هذا باقتناع شديد أعطاها أخيراً الدليل الذي تحتاجه بشدة:

ـ ما إن رأيتك من جديد حتى علمت أني في ورطة. وحين عثرت عليك فاقدة الوعي، كان علي أن أعترف بأن شعوراً ما غلبني، ولم أتمكن من السيطرة عليه

أو على نفسي.

نظر إليها بما يشبه الحزن. لم يعترف بعد بأنه يحبها، إنما هذا هو ما كانت تتوق إليه من دون أن تدرك ذلك حتى عادت. . .

كررت كلماته وهي ترتجف وكأنها تتلفظ بقسم ووعد:

ـ لوك، أريد أن أرعاك وأن أحميك من كل ما قد يؤذيك أو يقلقك أو يزعجك. أريد أن أعود إلى المنزل في المساء وأنا أعلم أنك هناك بانتظاري. أريدك أن تكون والد أطفالي، وسأحبك مدى العمر.

قطع المسافة التي تفصل بينهما بخطوتين كبيرتين، وأخذها بين ذراعيه، ضاماً إياها بقوة بحيث لم يعد بإمكانها أن تتنفس. وعندما راحت تتململ، أطلق سراحها، فرفعت وجهها إليه ليتعانقا من جديد.

هذه المرة، كان العناق طويلاً، حلواً وحنوناً. . . حنوناً جداً بحيث كانت سوريل واثقة من أن ما من شيء في حياتها قد يشبهه يوماً.

ـ لِمَ أتت ماري إلى هنا؟

طرح سؤاله هذا وهو يبعد خصلة من شعرها عن وجنتها. اسم المرأة الأخرى وصل كدخيل إلى شرنقة سعادتها: «لتحذّرني من أنك ستكون سعيداً بإقامة علاقة معي، شرط ألا أطالبك بأي التزام».

نعت ماري بصفة جعلت وجنتي سوريل تصطبغان باللون الأحمر. قال ببساطة: «بعد أن غادرت بارينجا، أصبحنا عاشقين لستة أشهر أو أكثر بقليل. وقد استأنفنا علاقتنا منذ حوالى سنة فقط. كنت معجباً بها وأحترمها؛ لذا وجدت أنها زوجة مناسبة لي. كنت أعلم أنها لن ترفضني لأنها ذكية وحساسة. ثم أرسلت ذاك الصندوق إلى هنا، فتحطمت خططي المنطقية والباردة كلها، وتحوّلت إلى أشلاء من حولي. أظن أني كنت مجنوناً بـ. . . أفترض أنه الخوف».

ـ الخوف؟

ـ في الليلة التي دخلت فيها زوجة أبي إلى غرفة نومي وهي ترتدي قميص نوم

فقط، وعدت نفسي ألا أكون يوماً كأبي وألا أدع أيّ امرأة تسيطر علي بحيث أفقد استقلاليتي واستقامتي.

عقد ذراعيه على صدره واستطاعت أن تسمع في صوته صدى تلك الخيانة القديمة: «كان يحبني، إنما ورغم أنه كان يعرف حقيقة شيري... وأنها ستقضي على واينامو... إلا أن هذا لم يمنعه من بذل جهده ليحرمني من الميراث».

قالت بعنف: «لكنك لست مثله».

ـ ربما لا. إنما حين وصل صندوقك، قلت في سري: إنها عائدة! وفجأة، تحولت حياتي من اللون الرمادي إلى قوس قزح من الألوان. عندئذ، أدركت أني مثله وأني لن أكون بأمان. لكن، لم يكن بإمكاني أن أتزوج من ماري، فقطعت علاقتي بها بقدر ما استطعت من لطف. لا ألومها إن رغبت في الانتقام.

تذكرت سوريل وجه المرأة وأدركت أن ماري تحبه وقد حاربت من أجله بالطريقة الوحيدة التي تعرفها. لكنها تصرفت بحكمة ولم تتكلم.

تابع لوك بكآبة: «لست فخوراً بنفسي لأني ألحقت بك الأذى، كما لست فخوراً أبداً بلومي لك على ضعفي الشخصي وبتصرفي كسافل مغرور عند عودتك».

تأملت وجهه الحبيب، وجهه العنيد: «يمكنني أن أفهم خوفك من الحب... فمشكلة والدك يمكن أن تؤثر في أي شخص. لكنك كنت تعرفني... رافقتك كظلك لسنوات وكنا نتفاهم جيداً. كنت صديقاً لطيفاً وأخاً أكبر لسنوات، لكنك تصرفت وكأن دروس عرض الأزياء التي تابعتها، ترافقت مع زرع طباع!».

نظر إليها لوك بعينين ضيقتين، ملتهبتين وقال: «كنت قد تخلصت لتوي من شيري التي بذلت قصارى جهدها لتدمرني وتدمر والدي، ثم وصلت... جميلة، بعيدة وتهديد قوي لصورتي الذاتية. لجزء من الثانية بعد أن رأيتك،

أدركت أنك سرقت جزءاً أساسياً من ذاتي خلال السنوات التي لعبت فيها دور الأخ الأكبر. بدأت أفتعل الغضب والحقد لأخفي اشمئزازي من نفسي».

ـ أنت؟ لا أصدق ذلك!

حدّقت إليه وقرأت الحقيقة في عينيه، فانتفض قلبها لأنه لم يعد يخفي نفسه خلف قناع وجهه الوسيم. قال بإيجاز: «صدقيني، يمكنني أن أكون فاشلاً».

استرخت سوريل واستندت إلى جسده الدافىء. خرجت أنفاسها سريعة من بين شفتيها، لكن هذا الحوار الهادىء مهم وإن كان عناقه رائعاً.

ـ أحتاج أن أخبرك هذا.

قال هذا بعينين جائعتين، متملكتين، فابتسمت له ابتسامة رقيقة، حنون.

ـ حسناً، أظن أننا وصلنا إلى مرحلة حيث ستشرح لي لما تصرفت كالطاغية، المستبد الخارج من كتب التاريخ ذاك الصيف في بارينجا، قبل أن تعانقني.

ـ ما استطعت أن أطلب من فتاة في الثامنة عشرة من عمرها أن تتزوجني أو حتى أن تنتظرني. كما أنك كنت تستحقين حياة خاصة بك، وكل ما كان بإمكاني تقديمه هو مزرعة تتطلب سنوات من العمل الشاق لتستعيد قدرتها على العمل. لذا، توّجب عليّ أن أحافظ على مسافة بيننا.

ـ لِمَ عانقتني إذن؟

ابتسم لها ابتسامة عريضة: «لأني لم أستطع منع نفسي. ابتسمت لي فاستسلمت».

قالت بتعاسة: «لذا، وجدت طريقة لتبعدني».

وتمنت لو أنها عرفت هذا كله حينذاك. كان ليوفر عليها الكثير من الآلام.

ـ ماري جاءت في الوقت المناسب كهبة من الله. فقد أعطتني عذراً لكي أنسحب، وأتراجع، وأقنع نفسي بأنني بخير. كان هذا مجرد جنون مؤقت، ما لبثت أن صحوت منه.

قالت برزانة: «هذا ما ظننته أيضاً. في الواقع، كنت واثقة من ذلك. إلا أني

احتفظت بك كتعويذة في فكري؛ اعتدت أن أقارن الرجال الآخرين بك، وقد فشلوا كلهم في الاختبار».

قال بكآبة وهو يتأمل وجهها الحبيب: «كنا غبيين. لو لم أكن واثقاً تمام الثقة من أن حبي لك سيحولني إلى تابع ذليل، لتمكنا ربما من حل مشاكلنا والاستمرار معاً».

ـ كنت فتية جداً.

ـ أعلم، وكنت غاضباً جداً من أبي، ومشمئزاً جداً من شيري، فلم أتمكن من الالتزام بأي شيء.

داعب العرق النابض في أسفل عنقها وابتسم لرد فعلها.

تسارع نبض سوريل. كل ما أرادته هو أن تنسى كل شيء وتستسلم لنار السلوان الحلوة، لكن هذا مهم جداً وعليها أن تتروى. وجاء صوته أجش حين قال: «حلمت بك طوال هذه السنوات. حملة الإعلان الأخيرة تتراءى لي دوماً وتلازمني كالشبح... لطالما تساءلت إذا ما كنت على علاقة بعارض الأزياء الذي يشاركك الإعلان، وكرهت شعوري بالضعف».

ـ لوك...

قاطعها بتحفظ مفاجىء: «لا، دعيني أنهي كلامي. لن أسألك عن الرجال الذين مروا بحياتك، فالأمر لا يعنيني».

قالت له بنبرة حادة: «وأنا لا أنوي أن أسألك كم امرأة عرفت».

ـ ربما أقل مما تظنين.

نظرت إلى عينيه مباشرة وردت: «وأنا أيضاً!».

ابتسم ابتسامة ملتوية وقال: «عندما عدت، كنت قد وضعت حداً لعلاقتي بماري وتقبّلت أن علي أن أواجه تأثيرك فيّ. كانت طباعي قذرة قبل وصولك، لكن حقيقتك، والشعور بك بين ذراعي تلك الليلة في بارينجا أرسلاني مباشرة إلى الجحيم. وحين اتصلت ماري لتسألني ما إذا كنت سأرافقها إلى العرض

الأول لذلك الفيلم اللعين، ركضت إليها كالجبان. بدت حساسة وطبيعية، وكنت ممزقاً بين الرغبات والحاجات التي تخليت عنها منذ سنوات».

مرر أصابعه في شعرها وتركها تنزلق في شلال الحرير الأحمر اللون.

ـ وساء وضعي أكثر. فأصبحت أستيقظ كل صباح وأنا أشعر بأن الشيء الوحيد الذي يجعل نهاري يستحق العيش هو وجودك. كنت أقترب تدريجياً من المشاعر المذلة التي كرهتها في أبي.

أراحت سوريل وجنتها على كتفه، وسألته: «لكن شعورك تغير الآن؟».

حبست أنفاسها بانتظار رده. هزّ رأسه وأجاب باقتناع هادىء:

ـ لم يعد الأمر مهماً. أحتاجك بقدر ما أحتاج أن أتنفس. أما بالنسبة إلى عدم الثقة بك... أول ما فعلته هو المخاطرة بحياتك من أجل هرّ. عندئذ، أدركت أني معرض لخطر حقيقي، فحاولت جاهداً أن أعيد تعزيز دفاعاتي كلها.

وضحك ضحكة قصيرة قبل أن يضيف: «إنما من دون جدوى!».

همست: «لا يهم. إنه الماضي وقد انتهى. المستقبل كله أمامنا الآن».

اشتدت أصابعه على شعرها وأدار رأسها برقة إليه ثم رفع وجهها ليتمكن من النظر إليه. سألها بلهجة عادية فيما كانت نظرته حادة ومركزة: «متى تريدين الزواج؟».

سألته وهي تبحث عن الرد في عينيه: «هل أنت واثق؟».

ـ كل الثقة.

وأضاف بصوت مثقل بالسعادة: «وكلما أسرعنا في ذلك، كلما كان أفضل».

ـ أما زال بالإمكان أن يتزوج المرء في غضون ثلاثة أيام هنا؟

ضحك وأجاب: «نعم، إنما أفضل أن أتزوج بك مع كل الأبهة والمراسم التي يمكنني تأمينها. ما رأيك بمهلة شهر؟».

www.elromancia.com

الخاتمة

تزوجا في حديقة بارينجا، تحت شجرة الماغنوليا. ارتدت العروس فستاناً من الحرير عاجي اللون، بذيل صغير، وتزينت بعقد اللؤلؤ الذي أهداها إياه لوك في الليلة السابقة كما وضعت الخمار الذي وضعته أمها يوم زفافها.

كانت وصيفتها إيما تالبوت، صديقتها الحميمة، التي أخفى ثوبها الكهرماني آثار حملها الثاني الطفيفة. وقد سلّمها كاين، زوجها الطويل الوسيم، إلى عريسها.

كان معظم الضيوف من المنطقة، رغم وجود بعض المخلوقات الممشوقة القوام والرائعة الجمال بين الضيوف. وعرف الكل الرجل الوسيم الحاضر، فهو عارض الأزياء الذي شارك العروس حملة الإعلانات الأخيرة. وشعرت النساء بالأسف عندما أدركن أنّ صديقته عارضة أزياء لا تقل عنه جمالاً.

وجه سوريل المشع ترك أكثر من غصة في حناجر العديدين، كما حنان لوك. أقيم حفل الاستقبال البهيج في واينامو، وانهالت عليهما بتلات الورد وهما يغادران لقضاء شهر العسل.

أمضيا ليلتهما الأولى في منزل لوك القائم على شاطىء إحدى الجزر. وفيما كانا يسيران على الشاطىء الخالي، والشمس تملأ السماء بألوان متعددة متألقة من ذهبي وزهري وبرتقالي، قالت سوريل بنبرة جافة: «أرجو أن تكون رؤية جايسون وكارول معاً قد أقنعتك بألا تقلق بشأن إعلانات العطور تلك. إنهما ثنائي متماسك».

قال بابتسامة: «إنهما لطيفان. في الليلة الماضية، طالباني بتقرير عن وضعي

المالي والعاطفي... بعد التحقيق الذي أخضعني له كاين. لكنهما ارتاحا عندما رأيا أن واينامو ليست بقعة صغيرة، يستهان بها».

انتظر ضحكتها الناعمة حتى انتهت ثم أنهى كلامه بنعومة:

- أظن أني نجحت في إقناعهم بأني قادر على إعالتك وأني زوج صالح نسياً.

قالت على الفور وهي تبتسم له: «إنك الأفضل».

توقف لوك عن السير وشدها إلى أحضانه، ثم قال بعنف: «أحبك. لكنك تعلمين هذا الآن، أليس كذلك؟».

همست وقلبها ينتفض فرحاً: «لدي فكرة عن ذلك».

رفع يدها إليه وقبل راحتها، فسرت رعشات في جسدها. قال: «سأحبك دوماً، وأعلم أنك لست كأمي أو كشيري... لا أعلم كيف تمكنت من إقناع نفسي بأنك قد تكونين مثلهما».

حضرت والدته الزفاف مع زوجها، كانت تتأمل ابنها بما يشبه الجوع اليائس، فشعرت سوريل بالأسف لأجلها وقررت أن تبقى على اتصال بها. لكن الوقت الآن غير مناسب لوضع الخطط:

- ما من أحد يرغب في أن يشعر بأنه عبد لمشاعره.

رفع لوك وجهها إليه وقال بهدوء: «لطالما كانت السيطرة على الذات مهمة بالنسبة إلي. ثم جئت وتحطمت إلى ملايين الأجزاء».

نظر إليها بتوق جلي وقال: «لم أشأ أن أكون كأبي، عالقاً في علاقة أنا الدخيل فيها، أنا المحتاج فيها. لكني لم أدرك ما كنت أطلبه منك... عندما قلت إنك لن ترضي بعلاقة غير متكافئة، أدركت أني أتصرف كشيري، أطلب ولا أعطي».

قالت سوريل بقوة: «أنت لست مثل شيري. والعلاقة بيننا ليست على هذا النحو... نحن متكافآن في كل شيء».

وابتسمت قبل أن تضيف: «باستثناء القوة الجسدية».

قال مشدداً على كلماته: «أحبك وأنت تحبينني، هذا كل ما يهم».

قبّل جبينها فاسترخت مستندة إليه وهي تشعر أخيراً بالأمان.

همست سوريل بشكل متقطع: «أتساءل كيف عرفت سيتيا؟».

عندما أعلنا خطوبتهما، أرسل إليها محامو بارينجا وثائق تحلُّها من الوصاية مع رسالة بخط سيتيا. قالت سيتيا في رسالتها إنها أصرت على إقامتها ستة أشهر في المنزل لأنها كانت واثقة من أنها ولوك خلقا لبعضهما البعض.

قال لوك بصوت أجش: «كانت عجوز حكيمة. ماذا ستفعلين بيارينجا؟».

رفعت رأسها لتقول: «أظن أنه مكان رائع ليقيم فيه الناس في حال إصابتهم بالمرض... ربما عائلات مع أطفال مرضى».

قال بصوت عميق وحنون:

- سوريل العزيزة، الطيبة القلب، سنحل المسألة لاحقاً. آه.. كم أحبك...

فردت بصوت مثير: «وأنا أحبك أيضاً».

وأخيراً، وفي الغسق المجيد، سارا معاً إلى مستقبلهما مسلحين بحبهما.